سليمان فرحات

مذكرات بعثي سابق



تقديم
أحمد رائف

الزهراء للإعلام العربي


بسم الله الرحمن الرحيم

الزهراء للإعلام العربى
قســـم النشـــر

ص.ب : ١٠٢ مدينة نصر – القاهرة – تلغرافياً : زاهراتيف – تليفون ٦٠١٩٨٨ – ٢٦١١١٠٦ – تلكس ٩٤٠٢١ رالف يوإن فاكس ٢٦١٨٢٤٠
P .O : 102 Madinat Nasr - Cairo - Cable : Zahratif - Tel : 601988 - 2611106 - Telex : 94021 Raef U .N fax 2618240

بسم الله الرحمن الرحيم

«وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلاً مِمَّنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ
وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ»

صدق الله العظيم
فصلت/٣٣

الطبعة الأولى

١٤١١ هـ - ١٩٩١ م

الجمع التصويرى والتجهيز
بالزهراء للإعلام العربى

سليمان فرحات

مذكرات بعثي سابق

صحفيون وكتاب للبيع

تقديم
أحمد رائف



الزهراء للإعلام العربي

مقدمة

مذكرات بعثي سابق

بقلم : أحمد رائف

يعتبر هذا الكتاب من الكتب الهامة لدراسة المجتمع البعثي العراقي ، وفهم دور حزب البعث ومناهجه في القضاء على الإنسان العراقي وتخريبه وإفساد نفسه وضميره .

والكتاب وثيقة ؛ لأن كاتبه الأستاذ سليمان فرحات كان عضوا مهما في حزب البعث العراقي لفترة من الوقت ظلت سنين كسني يوسف جرداء قاحلة حيث سبع بقرات سمان يأكلهن سبع عجاف .

وحزب البعث حزب شيطاني عجيب ، سراديبه غريبة ومخوفة ، والذي يدخل فيه لا يخرج منه إلا بمعجزة من المعجزات ، ذلك إن كتبت له الحياة وهو يحاول الخروج من الحزب ومن العراق ؛ وعليه بعد ذلك أن يحاول النجاة والتخفي من فرق الإعدام التي تجوب الأرض بحثاً عن هؤلاء الذين فروا .

والكتاب مليء بالأسرار المخوفة حول نشاط الحزب واهتماماته وكيف يقوم بتجنيد أعضائه ، والذي يعرض عليه أمر الحزب لا يستطيع الاعتذار أو الرفض ، وعليه أن يقبل ، وإلا كان مصيره

التصفية والقتل ، فعرض الأمر عليه معناه أنه قد اطلع على أسرار لاينبغي البوح بها ، ولضمان ذلك فإن عليه الصمت إلى الأبد إذا رفض .

وكل عضو من أعضاء الحزب عليه واجب يسمى « الكسب الحزبي » وهو أن يقوم على تجنيد أفراد جُدُد ، ولا يهم النوعية بل العدد هو الذي يسعى إليه الحزب وقيادته ، والذين لا دين لهم ولا أخلاق هم الأعضاء الصالحون الذين يريحون إدارة الحزب من المناهج المكثفة لقتل الدين والأخلاق في نفوسهم ، فمن أهم شروط الترقي في الحزب التخلي عن الموروثات البالية المتمثلة في التدين والالتزام بقواعد الأخلاق الإسلامية .

والإعلام من الأشياء الهامة التي يحرص عليها الحزب ويعمل على تحقيقها وعلى تملك أدواتها ، ففي كل دولة لابد من تملك جريدة وشراء عدد من الصحفيين يقدمون لهم المرتبات الشهرية والرشا والهدايا الكبيرة ، ولم يسلم من هذا عدد كبير من الصحفيين المرموقين .

ومن مهام الملحق الإعلامي العراقي في القاهرة وفي أية مدينة أخرى اكتشاف الصحفيين الذين يمكن لهم أن يتعاونوا مع حزب البعث عن طريق كتابة التقارير حول ما يريدونه من معلومات ، أو أن يقوم على تسفيرهم إلى بغداد حيث يلتحقون بعمل من الأعمال التي من الصعب أن نصفها وصفاً طيباً .

وفي فترة من الفترات في السبعينيات وبعد أن حاول صدام حسين أن ينتزع قيادة العالم العربي ويتفرد بها كان تركيزه على

الصحفيين المصريين ورجال الإعلام من مختلف التوجهات في الإذاعة والتليفزيون . وكانوا يعرضون عليهم أن يذهبوا إلى بغداد للعمل بمرتبات مغرية وحيث الانفلات الكامل المتمثل في الخمر والنساء والفساد الكبير . « وأمة عربية واحدة ذات رسالة خالدة »!!

ويختل الميزان في عالم البعث حيث يمكن لشخص رديء قليل القيمة لاصفة له أن يتحكم في كبار الصحفيين ورجال الإعلام ؛ لأنه مسئول حزبي ، وبتقرير منه يتحدد مصير شخص كبير واسم لامع ، الأمر الذي دعا من يقع تحت هذا النير أن يهتم أبلغ الاهتمام بتملق ذلك المسئول الحزبي والعمل على إرضائه ، وهذا هو البلاء المبين ، أن تجد كاتبا كبيرا وقد أحيط به وعليه أن يسترضي عاملا صغيراً حقيراً لا يفيق من الخمر عساه يكتب تقريرا طيبا عنه ، تقريراً يجعله يسافر في بلاد الدنيا للعلاج أو السياحة ، حيث يقيم في فنادق النجوم الخمسة المشهورة ويتقاضى ما يشاء من المصروفات .

وفي عالم « البعث » هناك أمور ينفق عليها بغير حساب ، وهي الإعلام والمخابرات وكوادر الحزب نفسه ، فهذه الشعب الثلاث لها ميزانيات مفتوحة ، ولا تقتير عليها أو إمساك ، بل هم ينفقون بلا حساب ولدينا مزيد .

وتجربة الكاتب في هذا المجال غريبة وعجيبة وتستحق الاطلاع باهتمام فقد قضى وقتا في تلك السراديب كما قلنا ، ونجا بأعجوبة من الهلاك .

وفي هذه الصفحات التي بين يديك أيها القارئ العزيز تجد العجب والغرابة ، وتبصر الرفاق وهم يساقون إلى الموت الذي ينفذ فيهم خطأ أو نتيجة تقرير خاطئ ، أو شبهة لا معنى لها .

وهو كتاب حافل بالأسرار منها ما هو ظاهر وجلي ، ومنها ما هو خفي ولكنك تستطيع أن تتبين خطوطه ، حيث يكتب الكاتب في حذر وتخوف خشية المساءلة ؛ لأنه يتكلم عن أسماء لامعة ورفيعة في عالم الصحافة والإعلام ، عن بعض هؤلاء الذين انضموا إلى حزب البعث وسافروا إلى بغداد ، حيث عاش الكاتب معهم وشاهدهم عن كثب وعرف نوازعهم وأسرارهم وكيف كانوا يتعاملون مع قيادة البعث ، وكيف أن بعضهم لم يتورع عن فعل أي شيء من أجل إرضاء الطغاة وحتى يحصل على بعض المال . ولكن الكاتب عندما يصل إلى هذه النقاط الحرجة والهامة فهو يدعك تتلمس طريقك إلى الحقائق عبر السطور التي تجدها غامضة أحيانا ، وجلية واضحة في أحيان أخرى كثيرة ، ولكن لا يلتبس عليك شيء في النهاية .

وفي أحاديث الكاتب معي بيَّن لي أشياء كثيرة عن علاقات الكتاب وكثير من الصحفيين وتغييرهم لجلدهم بين الفينة والفينة ، والتقلب بين الكفر والإسلام ، أو بين الإسلام والكفر جيئة وذهابا من حزب البعث وإليه . وهو أيضا لا ينكر على البعض شجاعتهم وجرأتهم ومحاولتهم للخلاص من ذلك السجن البغيض ، ونجاح بعضهم وفشل البعض الآخر الذي يعني القتل سماً أو بواسطة سيارة مندفعة يقودها قاتل جريء .

والكتاب يبين ذكاء صدام حسين وفهمه للإعلام وأهميته وضرورة التحكم في أدواته وأشخاصه بأي ثمن وبأية طريقة .

وحزب البعث ينفق المبالغ الطائلة من أجل تجنيد صحفي أو صاحب قلم ، وهو لا يهتم كثيرا بالإعلام داخل بلده ، فالتحكم في المواطنين يتم بمعرفة أجهزة الأمن والاعتقال والقتل ، أما خارج العراق فهم يعتمدون اعتماداً كلياً وأساسياً على الصحف وأصحاب الأقلام وهم ناجحون في خارج بلادهم ، وهم يهتمون بتحسين صورتهم بجميع الوسائل التي تخطر على بالهم .

وفي الكتاب ترى سهولة القتل ، قتل أي شخص يشتبه في أمره ، وهو يقتل قبل التحقق من هذه الشبهة ، فالقتل أضمن وهو يجنب الخطأ ، فقتل مائة بريء خير من نجاة مجرم واحد في حق الحزب أو في حق الزعيم الأوحد ، الذي يرونه نصف إله ونصف نبي ، أو هكذا يرى هو نفسه ، ويجبر المواطنين على هذه الصورة .

وفي صفحات الكتاب الذي يُعد وثيقة هامة من الوثائق التي تدين حزب البعث الشيطاني ، ترى كيف أن الشخصيات المخيفة التي تثير الرعب والفزع لنفوذها العظيم وسلطانها البالغ وقدرتها على فعل أي شيء ، يفاجئك الكاتب بعبارة بسيطة ولكنها بالغة التأثير ، فيقول : وتم إعدامه في ذلك اليوم ! وهكذا تخرج الشخصية البالغة الأهمية من صفحات الكتاب في بساطة وهدوء وفي خوف بالغ ، حيث يشعر القارئ بالقشعريرة وهي تنتابه لهذه القسوة البالغة .

* * *

هذا الكتاب وثيقة تبين لنا بوضوح أن حكومة البعث العراقي حكومة من المجرمين والقتلة والسفاحين ، وهم يستمدون ويستلهمون هذه الأخلاق الوضيعة من رئيسهم الذي سطا على الحكم عبر أشلاء زملائه وخيانتهم وتصفيتهم واحداً بعد الآخر .

وهذا الكتاب يرينا أن حزب البعث حزب شيطاني يريد القضاء المبرم على كل ما هو إسلامي في عالمنا العربي ، وأنه زرع صليبي قد تم وضعه في وقت مبكر من تاريخ هذه الحقبة الحديثة ، وأنهم متعاونون مع اليهود وإسرائيل ، ويمكنك أن تستنتج هذا وتراه بين السطور .

وتفهم من قراءة هذه السطور أن حزب البعث قد نجح في تحطيم الإنسان في العراق والقضاء على كل معنوياته وأخلاقه ، وأنه قد استطاع أن يحول كل المواطنين إلى مجموعة من كتبة التقارير . وكلهم يتجسسون على بعضهم البعض ، حيث تشي الزوجة بزوجها ، والولد بأبيه في عالم هو أقرب إلى مزرعة الحيوانات منه إلى مجتمع آدمي له نشاط .

هذا الكتاب يبين لنا أهمية الإسلام لبلادنا العربية المنكوبة بالقتلة والسفاحين الذين يتسللون إلى الحكم في غفلة منا ومن الزمن . وهو يدعونا في إلحاح إلى الوقوف ضد صدام حسين ، فقد نجح في ضرب الإسلام والمسلمين في مقتل ، ولن يكون هناك أمل في النهضة مادام هذا النظام الشيطاني في أرض الرافدين .

مدينة نصر في 4 ديسمبر سنة 1990 **أحمد رائف**

الإهـــــداء ••

إلى أى عربى يناضل بثبات ضد مخططات :

- تزييف وعيـــــه
- وشـــل إرادتـــه
- وإهدار طاقتـــه

إلى أى عـراقى علـه يرفـع عـن كاهلنـا :

- ليل البعث الطويل
- وأيامه القاسية
- وجرائمه البشعة

تقـديم

قدر لي أن أكون عضوا في حزب البعث العراقي وواحدا من قياداته ووفقتني الظروف إلى أن أعمل في قيادته القومية وأن أشرف على كل أنشطته السياسية والإعلامية التي تتصل بمصر ، وقدر لي أن ألتقي بصدام حسين وأن أتعامل معه وأن يكون بين واجباتي الحزبية أن أقدم له التهاني كلما حلت مناسبة من مناسبات البعث العديدة أو مناسبات الثورة المختلفة .

وقدر لي كذلك أن أنجح في الهرب من البعث والعودة إلى مصر بعد أن وجدت نفسي عضوا في عصابة وليس عضوا في حزب وواحدا من المخبرين السريين والقتلة وليس واحدا من المناضلين وبعد أن وجدت نفسي بوقا من أبواق الكذب والتضليل وقلب الحقائق ، وبعد أن قدرت أن دوري في طابور المغدورين والمقتولين على وشك أن يحل وأن مكاني في معتقلات البعث الرهيبة وسجونه على وشك أن يجهز بأدوات التعذيب ووسائل القهر .

ومنذ عدت إلى أرض الوطن وأنا أصرخ أن انقذوا الأمة من صدام حسين وحزبه لكن صرخاتي ضاعت وسط ضجيج الأبواق المنافقة ومنذ عدت وأنا أكتب أن انقذوا الوطن من هذا المتآمر وعصابته ، لكن معظم الأقلام كانت تسبح بحمده وتلعن أعداءه من الحاقدين والموتورين ! قلت إن الرجل سفاح وإن حزبه عبثي وليس

بعثيا وإن الأمن القومي العربي مهدد ما بقي هذا الرجل وظل هذا الحزب لكن الكلمات ضاعت في عصر الضياع العربي عصر الفارس العربي صدام حسين !! .

* * *

كنت قد كتبت هذه المذكرات قبل أكثر من ست سنوات وكنت قد أعلنت عن نشرها بعنوان « المعارضة الوطنية المصرية والبعث العراقي » لكن أصدقاء عديدين بادروا بالاتصال بي متخوفين أن يكون بين ماكتبت ما يعرض أحداً لمخاطر أو يعرضني لمسئوليات ومخاطر أخرى أكثر مما تعرضت له . وبعض الأصدقاء كانت وجهة نظرهم أنني سأتعرض لحملة أخرى من سوء الفهم المتعمد حول أهداف النشر وتوقيته .

وليس الهدف من نشر هذه المذكرات ــ على أي حال ــ إذاعة أسرار بغير مبرر أو التعرض لأحد بغير هدف أو فضح جرائم الآخرين لمجرد التشهير . إنما هو حق الأمة العربية وجماهيرها في أن تعرف الحقائق المستفزة كما عرفتها وأن ترى المخططات والنوايا كما رأيتها وأن تتابع الأهداف الحقيقية لهؤلاء كما تابعتها والأساليب والوسائل القذرة كما حدثت .

في كل يوم طوال سنوات ست كنت أزداد اقتناعا بأن هذه المذكرات لابد أن تخرج إلى النور عبرا ودروسا حتى لا يقع الآخرون في الشرك وحتى لا يبقى الذين سقطوا في فخ البعث بغير نبراس وبغير طريق وحتى تخرس الألسنة المنافقة وتقصف

الأقلام المأجورة .

ولقد عكفت ــ على أي حال ــ قبل أن أصدر هذه المذكرات على مراجعتها بدقة حتى لايكون فيها ما يعرض الآخرين لإرهاب البعث أو للمسئولية أمام أية جهة في مصر خاصة في ظروف حالة الطوارىء غير المبررة أو القوانين الاستثنائية المشهرة ، وحتى لا أعرض نفسي للمسئولية أمام أحد .

واختصرت هذه المذكرات إلى نصفها تحريا للدقة وإيثارًا للسلامة ، سلامتي وسلامة الآخرين أيضا !!

والله من وراء القصد

سليمان محمد فرحات

القاهرة في أكتوبر 1990

البعث : قبل أن أغوص في أعماقه

قبل أن أصبح في داخل هذا الحزب وقبل أن أغوص في أعماقه كانت المعلومات عنه محدودة ومحاولة فهمه مقصورة على قليل من الكتابات وقليل من أحاديث هؤلاء الذين زاروا سوريا أو العراق وتحدثوا بما عرفوه ، وهي كتابات وأحاديث تلتقي في أحيان وتفترق في أحيان أخرى وتتناقض في بعضها الآخر تناقضا شديدا يترك أية محاولة للفهم بغير وضوح وأية أسئلة مثارة بغير إجابات محددة .

وعلى الرغم من دور سياسي كنت أؤديه قبل أن أرحل إلى بلاد البعث وبرغم محاولات للتثقيف الذاتي غير أن معلوماتي ظلت بسيطة ومبتسرة لكن الأساس فيها كان هو الموقف المصري الرسمي ورؤية جمال عبدالناصر لهذا الحزب وهو موقف جوهره العداء وعدم الثقة ورؤية ملخصها أنه حزب متآمر يرفع شعارات الوحدة والحرية والاشتراكية ، لكن سياساته غارقة في التآمر والمناورات والقمع والظلم والظلام .

كانت تجربة الوحدة التي تمت بين مصر وسوريا دائما تضع أمامي أسئلة بغير إجابات فلقد قبل الحزب أن يحل نفسه تنفيذا لشروط عبدالناصر لإتمامها وهي تضحية تحسب له لكن وثائق مؤامرة الانفصال أكدت أن البعثيين ظلوا يتآمرون على هذه الوحدة منذ قيامها وكان البعثيون هم أهم القوى التي طالبت بالوحدة وشاركت في صنعها لكنهم أيضا كانوا ضمن القوى التى رحبت بالانفصال وأيدته وشاركت فيه وفق كثير من الشهادات والوثائق .

وبرغم أنني حصلت على أهم كتاب صدر في مصر عن هذه التجربة ، وهو كتاب الأستاذ محمد حسنين هيكل « ماالذي يجري في سوريا » غير أنني حصلت

أيضا على كتابات تخالف ما جاء في هذا الكتاب وتناهضه ، فبينما رأى الكاتب المصري الشهير أن جزءا كبيرا من أسباب فشل الوحدة يقع على عاتق البعثيين ومناوراتهم ومؤامراتهم فإن كتابات أخرى قد ألقت بأسباب هذا الانفصال على عاتق جمال عبدالناصر وفي المقدمة منها تعيين عبدالحكيم عامر مسئولا عن سوريا وسياسات أخرى جرى تنفيذها . إلى هذا الحد تضاربت المعلومات لكنني كنت بطبيعة الحال متأثرا بالرؤية الناصرية ككل الشباب الذين تربوا سياسيا ضمن المفاهيم والأفكار التي سادت مصر منذ عام 1952 وكان الإعلام المصري ــ على قلة الثقة فيه ــ أحد الروافد الرئيسية التي ينهل منها هذا الجيل ويعي من خلالها .

كانت الشعارات التي ترتفع في مصر هي ذاتها الشعارات التي ترتفع في عواصم البعث ومدنه وكانت الأهداف المعلنة هنا وهناك واحدة وإن اختلفت في الترتيب ؛ يراها عبدالناصر حرية . اشتراكية . وحدة ويراها البعث وحدة . حرية . اشتراكية لكن العلاقة بين عبدالناصر والبعث على ما انتابها من مد وجزر ، من هدوء وأزمات ظلت مشوبة بعدم الثقة والعداء الصامت أحيانا المتحفز أحيانا أخرى وكانت الاتهامات المتبادلة محيرة ومثيرة للتساؤلات بين قوى متشابهة الأفكار متوافقة الأهداف كنا نسمع من إذاعات القاهرة عن البعث المتآمر وعن الإرهاب البعثي ونسمع نفس الاتهامات من إذاعات البعث موجهة ضد عبدالناصر وثورته ونظامه لكن المعلومات الأولية التي ظلت محفورة في ذاكرتي عن حزب البعث كانت تدور على نفس المحاور التي انطلق منها الخطاب السياسي الناصري وخلاصتها أنه حزب متآمر بطبيعته إرهابي بتكوينه وكنت أعتقد حينئذ في تحليلات ترى أن الذين أسسوا هذا الحزب قد تأثروا كغيرهم بالنزعات الفاشية التي شاعت وتأثر بها الشباب منذ بدأت النازية محاولاتها لاكتساح العالم .

لكن السؤال الذي ظل عندي بغير جواب كان هو عن أسباب انشقاق هذا الحزب بين سوري وعراقي وانشطاره على جانبي الحدود هناك إلى حزبين يحملان ذات

الاسم ويرددان نفس المفاهيم والأفكار لكن بينهما عداء مستحكما يستغلق على الفهم ويستحيل تفسيره ، فكيف لحزب قومي واحد أن يحكم في قطرين فيزيد شقة الخلاف بينهما ويؤجج نيران الكراهية بين شعبيهما ويكرس التجزئة إلى حد القطيعة ؟ لكن صورة البعث العراقي لديَّ كانت أكثر قتامة !!

كنت أعرف الكثير عن تاريخ العراق كقطر عربي كبير ضارب بجذوره في التاريخ الإنساني والحضاري لكن عوامل عديدة دفعتني إلى الاعتقاد بأن العراقي عنيف بطبعه غير مأمون بطبيعته ربما لأن قراءة التاريخ الإسلامي في عصوره الأولى قد استغرقتني وربما لأن أحداث التاريخ المعاصر مليئة بأحداث يشيب من هولها الغلمان ولقد كانت تقفز إلى ذهني دائما كلما تذكرت العراق حكايات القتل والسحل التي صاحبت مقتل نوري السعيد ، أو تلك التي حدثت في الموصل إبان ما عرف بثورة الشواف وحتى تلك الأحداث التي ذهب على إثرها عبدالكريم قاسم وكلها تحمل من فنون الإرهاب والقتل والتنكيل والتمثيل بالخصوم ما لم نسمعه عن غير العراق وعلى امتداد الوطن العربي .

لكن رواية موثوقة هي تلك الرواية التي سمعتها من خالي وأنا لم أتجاوز الثانية عشرة من عمري . كان يعمل مدرسا للغة الإنجليزية في إحدى مدن العراق معارا من الحكومة المصرية منذ بدايات ثورة عبدالكريم قاسم وحين كانت العلاقات المصرية العراقية في أحد شهور العسل القليلة وتدهورت العلاقات بسرعة إلى عداء مستحكم وأصبح المصريون هناك عرضة للإيذاء والتنكيل وحتى القتل وفر خالي عائدا إلى مصر ليروي وأسمع حكايات عن عراق الرعب والفزع وعن العراقيين الذين خلت قلوبهم من الرحمة والذين كانوا يخيرون خصومهم من العراقيين وأعداءهم من المصريين بين ثلاثة ، هي : السحل أو الحرق أو التعذيب حتى الموت .

وحين أصبحت طالبا في جامعة القاهرة التقيت لأول مرة بعراقيين لكنني لم أر في وجوههم ملامح القتلة ولم أستشعر في معاملتهم غير أنهم بعض العرب وبعض

بني البشر لا يختلفون في شيء ، كان لي بينهم أصدقاء لكنهم كانوا يتحدثون في كل شيء إلا السياسة وكلما حاولت جرهم إلى حديث عن حزب البعث استداروا ومضوا إلى طريق آخر لكن واقعة حدثت استدعت من العقل الباطن حكايات خالي وكل الحكايات الأخرى .

في امتحانات كليه التجارة « السنة الثانية » عام 1969 ضبط طالب عراقي يدعى عدنان متلبسا بالغش وأصر المعيد الذي ضبطه على طرده وحرمانه من الامتحانات فانقلب العراقي إلى ثورهائج واعتدى على المعيد اعتداء وحشيا وكأنه يحاول قتله لولا تدخل عناصر الأمن الجامعي وبعض الطلبة وصدر قرار بفصل عدنان وعاد إلى العراق لكن الواقعة كما قلت استدعت من عقلي الباطن كل الحكايات الأخرى عن العراق والعراقيين .

ويبدو أنه لهذا السبب كانت صورة البعث العراقي لدي أكثر قتامة من صورة البعث السوري .

كانت حكايات خالي وحكايات التاريخ العراقي قديمه وحديثه وحكايات الإعلام المصري عن البعث العراقي وإرهابه ومؤامراته تختلط كلها في ذهني لكن أذني كانت تلتقط في أحيان كثيرة إذاعات عراقية وبعثية وبعض الكتيبات التي كانت تصدر في بغداد وتتسرب إلى مصر وقعت بين يدي .

ولهذا كله ظلت الحقائق حول العراق والبعث باهتة بالنسبة لي وظلت علامات الاستفهام كثيرة لكنني لم أتخيل أبدا ولو لحظة واحدة أنني ذات يوم سوف أتثبت من كل الحقائق وأضع أمام كل علامة استفهام إجابتها الصحيحة لأنني لم أتصور أبدا أنني سأذهب بكامل إرادتي إلى بلاد البعث والإرهاب والجريمة والتآمر !!

الطريق إلى العراق والبعث

هتفت لأنور السادات

يكاد اليوم السادس من أكتوبر أن يكون أهم يوم في حياتي ..

ففي هذا اليوم من عام 1954 بدأت رحلة التعليم الطويلة والتحقت بالمدرسة الابتدائية في قريتي وبدأت الطريق الطويل الذي انتهى بي في كلية التجارة بجامعة القاهرة وفي نفس اليوم من عام 1971 انخرطت في صفوف الجندية وارتديت لأول مرة لباسا عسكريا لأصبح بعد تسعة شهور ضابطا احتياطيا في القوات المسلحة المصرية ، وفي اليوم ذاته من عام 1973 كنت أحد الذين حاولوا أن يعبروا بمصر من ليل الهزيمة الطويل إلى صبح النصر ونهار التحرير ، يومها هتفت لأول مرة في حياتي للرئيس الراحل أنور السادات ولكنها كانت آخر مرة أيضا إذ قضيت عمري بعدها أهتف ضده . ولعلها المصادفة أنه في السادس من أكتوبر سرحت من الخدمة العسكرية فهل تكون مصادفة أخرى أنني في السادس من أكتوبر عام 1977 غادرت مصر لأول مرة في الطريق الذي انتهى بي إلى العراق والبعث ؟

* * *

أنور السادات يقود مصر للهاوية

منذ أنهيت الخدمة العسكرية وأنا أعتبر أن دوري في الحياة السياسية والعامة هو أهم الأدوار في حياتي في إطار فكر رأيته صائبا هو فكر ثورة يوليو عام 1952

ورؤى رأيتها صحيحة وهي التي صاغها جمال عبدالناصر وعبر عنها على مدى ثمانية عشر عاما وانطلاقا من هذا الفكر وتلك الرؤى فلقد كنت أرى أن أنور السادات يقود مصر منذ وقف إطلاق النار عام 1973 إلى هاوية لا قرار لها سواء على الصعيد السياسي أو الاقتصادي كما وجدت نفسي ضمن جنود عبوره العظيم فلقد اعتبرت نفسي أيضا جنديا في مواجهة ردته على ثورة يوليو وسياساته التي كانت تتجه إلى الصلح مع إسرائيل والتبعية لأمريكا وتخريب الاقتصاد المصري تحت لافتة الانفتاح والرخاء .

في القرية

كانت قريتي هي قاعدة الانطلاق حين أسهمت بدور لا يزال يذكر في توعية الشباب وإدارة الانتخابات التي كانت تجرى بأسلوب جديد يضمن دورا للشباب والعناصر المؤهلة لذلك ثم تعدى هذا الدور إلى كل بلاد مركز زفتى الذي كانت قريتي ضمن حدوده وهكذا أصبحت واحدا من قيادات هذا المركز في مجالات العمل السياسي والشبابي والثقافي واضطر الأستاذ سعد الدين وهبه إلى أن يصدر قراره بندبي للعمل مديرا للثقافة الجماهيرية بزفتى تحت ضغوط شبابية وشعبية واعترافا منه بواقع الحال بعد أن أصبحت كل أنشطة الثقافة الجماهيرية في هذا المركز تدار بإشرافي .

مقاومة تزوير الانتخابات

في بداية عام 1976 قدت اعتصامين تم أحدهما لمجموعة من شباب المركز في مبنى الاتحاد الاشتراكي بطنطا وتم الآخر في مكتب عبدالحميد حسن أمين الشباب حينئذ بالقاهرة وكان الهدف من الاعتصام في الحالتين هو مقاومة تزوير انتخابات الشباب التي تمت حينئذ ولقد نجح الاعتصام في الحالتين في تحقيق أهدافه لكنه أسفر عن نتيجة أخرى وأصبحت معروفا لدى أوساط العمل السياسي في محافظة الغربية خاصة أوساط الشباب ودخلت إلى مرحلة جديدة من مراحل العمل السياسي .

عضو في منبر اليسار

وفي بداية عام 1976 أيضا كانت مصر تستعد لمرحله جديدة من العمل السياسي بعد أن أعلن السادات عن قيام ثلاثة منابر سياسيه تعبر عن اليمين والوسط

واليسار وبدأ الانضمام لها في أول أبريل عام 1976 وقبل أن يمر أسبوع واحد كنت سجلت استمارة عضويتي في منبر اليسار الذي أسمي بالتجمع الوطني التقدمي باعتبار أنه سيضم تحالف الناصريين والماركسيين وفصائل اليسار الأخرى بما فيها ما عرف حينئذ بالتيار الديني .

عضو في حزب التجمع

بعد أسابيع قليلة من الانضمام إلى حزب التجمع الذي كان لا يزال منبرا ، أصبحت أمينا لمركز زفتى ثم عضوا في اللجنة القيادية لمحافظة الغربية ثم عضوا في هيئته القيادية العليا التي سميت حينئذ بالهيئة التأسيسية وهكذا وجدت نفسي لأول مرة ضمن قيادات حزب سياسي أعمل ضمن فصائل اليسار في مواجهة السلطة في وقت كانت هذه الفصائل هي أهم قوى المعارضة ضد نظام السادات وكانت أجهزة السلطة القمعية تعمل بعنف ضد هذه الفصائل بشكل أساسي .

الشيوعيون يسيطرون على الثقافة الجماهيرية

بدأت معركة السلطة وأجهزتها ضدي بمحاولة إبعادي عن العمل في الثقافة الجماهيرية أو على الأقل من الموقع القيادي فيها ونشرت صحيفة أخبار اليوم لأكثر من مرة أن الشيوعيين يسيطرون على الثقافة الجماهيرية في مركز زفتي ولم أكن شيوعيا ذات يوم ولا ماركسيا أبدا إنما كان هو الاتهام الجاهز والفعال لضرب اليسار وحزبه وعزله عن الجماهير وحرض قادة حزب السلطة حينئذ مجموعة من الشباب ونقلوهم على نفقتهم إلى القاهرة حيث قابلهم الأستاذ سعد الدين وهبه وسمع منهم الكثير عن قصر الثقافة الذي تحول إلى وكر للشيوعيين وعن مدير الثقافة الذي يكرس أنشطة الثقافة لخدمة أهداف اليسار . لكن القشة التي قصمت ظهر البعير كما يقولون عندما ألقيت كلمة في اجتماع الهيئة القيادية لحزب التجمع حذرت فيها من أن السادات يندفع بمصر إلى هاوية وطالبت بالنضال ضده وتجاوز مرحلة المعارضة إلى مرحلة المقاومة وما أسميته بالعمل لإنجاز الثورة الشعبية .

الطرد من العمل

كان ذلك في شهر ديسمبر عام 1976 وبعد أسبوع واحد وبينما كنت في مكتبي بالثقافة الجماهيرية فوجئت بالزميل صبري زايد وهو من قيادات الثقافة

الجماهيرية بالغربية وفي يده قرار بتسلم العمل بدلا مني و لم ينتظر الرجل حتى أجمع له عهدتي وأسلمها لكنه وقع خلو طرفي على بياض مؤكدا أنها التعليمات التي لديه .

خرجت من الثقافة الجماهيرية رافضا أن أعود إلى عملي الأصلي كوكيل لحسابات الوحدة المحلية بمركز زفتى واستخرجت جواز السفر استعدادا للرحيل عن مصر .

بينما كنت أتأهب للسفر خرجت جماهير مصر كلها في انتفاضة يناير عام 1977 وما أن هدأت نيرانها حتى بدأت حملات الاعتقال لهؤلاء الذين حصر السادات الأحداث كلها في دائرة تآمرهم وهم الشيوعيون واليساريون بشكل عام ، لكن قرارات الاعتقال لم تشملني .

الدفاع عن المعتقلين

لم يعد ممكنا أن أترك مصر وأمضي و لم يكن مقبولا ومعظم الأصدقاء في غياهب السجون أن أتخلى وأهرب خاصة أن قرارات الاعتقال قد شلمت أكثر من نصف اللجنة القيادية لمحافظة الغربية لهذا قررت أن أبقى وحملت مع الذين أفلتوا من الاعتقال مسئولية التجمع وأنشطته كلها وتعرضت لكثير من مضايقات أمن الدولة وتهديداتها واستدعاءاتها المتكررة حتى أفرج عن المعتقلين على ذمة قضايا هذه الانتفاضة ثم بدأت أفكر مرة أخرى في الخروج من مصر خاصة وقد اضطررت إلى العودة لعمل لا أحبه إضافة إلى أسباب عديدة أخرى يتعلق بعضها بتردي الأوضاع الاقتصادية وبعضها الآخر بفقدان الأمان وكثرة المضايقات الأمنية وخلافها .

اخرج إلي لك من الناصحين !

في بداية أكتوبر عام 1977 كانت القوى اليسارية تستشعر ضربة أمنية جديدة وبمحض المصادفة التقيت ضابطا برتبة عقيد في وزارة الداخلية كان يعمل رئيسا لنقطة

البوليس في قريتي قبلها بسنوات وحين صافحني على رصيف شارع بادرني سائلا هل لديك جواز سفر ؟ وعندما أجبته بنعم قال بأصالة مصرية « بيننا عشرة وعيش وملح سافر بأسرع ما يمكنك » ومضى .

إلى دمشق .

في اليوم التالي حجزت تذكرة على الطائرة المتجهة إلى دمشق في رحلة رأيت ورأى معي بعض الأصدقاء أن يكون هدفها العاصمة الليبية وفي صباح السادس من أكتوبر غادرت مصر وفي اليوم التالي توجهت إلى السفارة الليبية وقابلت السفير ووعدني بتأشيرة دخول وعقد عمل مناسب في ليبيا على أن أمر عليه بعد ثلاثة أيام .

محاولة الخروج إلى ليبيا .

في اليوم المحدد ذهبت إلى السفير الليبي الذي بدا أقل حماسا من اللقاء الأول وعاد ليطلب مهلة أخرى وبينما كنت عائدا من السفارة وجدت مكتبة تبيع الصحف المصرية اشتريت صحيفة وقرأت على صفحتها الأولى خبرين كان الأول يتعلق بزيارة عبدالسلام جلود لمصر في محاوله لمصالحة مع مصر وكان الخبر الثاني يفيد باعتقال عدد من قيادات التجمع بعضهم من محافظة الغربية .

أدركت أن دخول ليبيا قد لا يتيسر في وقت قريب وتذكرت قريبة لي كانت تدرس في جامعة دمشق وكنت أعلم أنها قد تزوجت من صحفي مصري له علاقة بالنظام السوري وبوسعه أن يساعدني للإقامة والعمل في سوريا لكنني رفضت الفكرة بسبب فكرتي عن حزب البعث خاصة أن سوريا ليست مجالا للعمل إلا إذا كان العمل سياسيا أو إعلاميا .

إلى العراق .

وقفزت إلى ذهني فكرة تحولت بسرعة إلى قرار كان القرار هو أن أغادر إلى

العراق وأن أبحث فيها عن عمل كأي مصري على أن أتجنب أية أنشطة سياسية وأن أحذر من الوقوع في فخ البعث ووضعت لهذا القرار ضوابط عديدة أهمها ألا يعرف أحد أن لي علاقة من أي نوع بالسياسة أو الثقافة أو الإعلام .

ومرة أخرى حجزت تذكرتي لأجد نفسي في اليوم التالي في عاصمة البعث .

* * *

في بغداد .

حين وصلت إلى بغداد كنت أشعر بالحزن والقلق ، الحزن لأنني لم أوفق في الحصول على تأشيرة دخول إلى ليبيا والخوف لأن في ذاكرتي عن العراق ما يخيف ويفزع والقلق من أن أجد نفسي في صفوف البعث في ظل أية ظروف أو تحت أية ضغوط وربما أن هذه الأحاسيس هي التي دفعتني إلى شارع الرشيد الذي يكتظ بالمصريين في محاولة للاختفاء بينهم .

صحبني مهندس مصري شاب إلى فندق الأمراء الحديث وهو فندق شعبي متميز نسبيا عن بقية فنادق شارع الرشيد وفي غرفة قادني إليها مدير الفندق ألقيت حقيبة وحيدة كانت معي وألقيت جسدي على أحد سريرين ونمت نوما عميقا وكأنني مرة أخرى أحاول الهرب بالنوم من مصير مجهول وفي اليوم التالي بدأت رحلة البحث عن عمل بمعاونة شباب مصري ألفتهم بسرعة وألفوني بأسرع منها .

كان مدير الفندق يدعى محيي عبدالكاظم ويكنى بأبي حازم وكان عراقيا مثقفا ودودا يكثر من الجلوس مع نزلاء الفندق ويتناول معهم أحاديث من كل نوع وليست إلا أياما حتى أصبحت أثيرا لديه يؤثرني بالاهتمام ويبحث عني دائما ويحاول أن يفتح بيننا موضوعات للحوار ، وأن يخلق أسبابا مختلفة لمزيد من اللقاءات المطولة ولكن ذلك كان يزيد قلقي ويدفعني إلى المزيد من الشك فيه برغم أنني كنت أستشعر صدق مشاعره ، وأرجع هذا الاهتمام أحيانا إلى ثقافته الواسعة وحرصه على مزيد

من الفهم وإلى أنه وجد في فندقه لأول مرة مثقفا يناقشه ويحاوره ويضيف إلى معلوماته .

السادات يزور القدس .

حين انفجرت على غير انتظار أنباء عزم السادات على زيارة القدس المحتلة كنت قد قدمت عدة طلبات إلى عدة شركات ومصالح حكومية للعمل بها كمحاسب وكان المتوقع أنني سوف أتسلم عملا في أقرب وقت لكن المظاهرات بدأت تشق شارع الرشيد أمامي احتجاجا على هذه الرحلة المخزية ولم يكن بوسع مثلي أن يظل متفرجا آثرت أن أتجنب الظهور في هذه المظاهرات وأن أفرغ غضبي على الورق فكتبت دراسة طويلة تحت عنوان « رحلة السادات والطريق إلى الهاوية » قرأها أبو حازم فأعجبته وأصر على أن أرسلها إلى صحيفة عراقية لكنني أقنعته أنني استهدفت بكتابتها إفراغ شحنة غضب كادت أن تمزقني وبدا مقتنعا لكنني عدت في اليوم التالي من امتحان في إحدى الشركات فلم أجد الدراسة في مكانها . وجدت أبا حازم يبتسم لي ويبلغني أنه وضع الدراسة في مظروف ووضع المظروف في صندوق بريد بعد أن عنونها إلى صحيفة الثورة العراقية . وما هي إلا بضعة أيام حتى كانت هذه الدراسة على صفحة كاملة في هذه الصحيفة وهكذا كانت البداية .

قال لي أبو حازم إن الصحفة الثالثة من صحيفة الثورة مخصصة لكبار فلاسفة الحزب وأن نشرها على هذه الصفحة يعني أنها جيدة إلى حد كبير ولم يكن الرجل يعلم أنه بما أقدم عليه قد نسف قرارا اتخذته وعرضني لما عزمت على تجنبه .

حزب البعث يتصل بي .

بعد ثلاثة أيام من نشر هذه الدراسة كنت عائدا من الفندق بعد أن شاهدت

عرضا سينمائيا ليليا في دار للسينما واستقبلني أبو حازم بلهفة غير معتادة وأبلغني أن جهة يعتقد أنها مهمة اتصلت بي وأن شخصا يعتقد أنه مسئول كبير كان هو المتحدث وأنه سيتحدث مرة أخرى ولم يكد يكمل حديثه حتى رن جرس التليفون وتحدث إليَّ هذا المسئول طالبا أن أحدد موعدا للقائه في نهار الغد ، وفي صباح اليوم التالي كانت سيارة فارهة على باب الفندق تنتظرني حملتني إلى حيث عرفت فيما بعد أنه مكتب من مكاتب القيادة القومية يسمى مكتب تنظيم مصر والتقيت فيه بمن عرفني بأن اسمه حسين طعمه ولكنني كنت قد فهمت أنه مدير المكتب وقيادة كبيرة في حزب البعث هكذا سقطت كل احتياطاتي وأصبحت لأول مرة وجها لوجه مع بعثي كبير .

بعد دقيقة واحدة من دخولي إلى مكتب حسين طعمه دخل شخص آخر وجلس على مقربة مني بعد أن ألقى تحية عابرة وتصورت أن هذا الرجل لطريقته ولهيئته لابد أن يكون ضابط مخابرات لكنني عرفت بعد ذلك أنه الرجل الثاني في المكتب وأمين التنظيم البعثي المصري كله وأنه يدعى عرفان الكبيسي .

وبينما بدا حسين طعمه ودودا ومثقفا يبعث على الراحة بدا الكبيسي على العكس منه منفرا ومريبا ولا سبب لوجوده بغير أن يشاركنا الحديث إلا أن يكون كما تصورت رجل أمن أو مخابرات عامة .

الحزب فوق الدولة .

أبدى حسين طعمه دهشته لأنني أقيم في العراق دون علمهم وأسفه لأنهم لم يتمكنوا من استقبالي بما يليق وأبدى انزعاجه لأنني بقيت بغير عمل طيلة هذه الفترة وحملني مسئولية ذلك كله وأكد أن مقالي في صحيفة الثورة يعني أنني صحفي كبير أو قيادة سياسية مصرية وأبلغته أن ذلك ليس صحيحا وأنني لم أتجاوز أبدا في مصر موقع مدير للثقافة الجماهيرية وأن دوري في العمل السياسي لا يزال محدودا واعتبر الرجل ذلك كله محاولة للتواضع فسألني عن الصحيفة التي أريد أن أعمل

بها وأجبته على الفور بأنني لا أريد العمل في أية صحيفة إذ لاخبرة لي بالعمل الإعلامي وبدت على الرجل علامات دهشة ورفع سماعة تليفونه وأمر من حدثه بأن يطلب له وزير الشباب وأدركت من حديثه إلى الوزير أن موقعه يفوق سياسيا موقع الوزراء ثم وضع سماعة التليفون وقال لي « ستقابل وزير الشباب وستعين في موقع لديه حتى تقرر بنفسك أن تعمل في الصحافة العراقية ربما أنك لا تريد الآن ذلك لسبب أو لآخر ولكنك تستطيع أن تعتبر أية صحيفة عراقية مفتوحه أمامك عندما تشاء » نهضت لأصافحه وأعطى تعليماته لسائق استدعاه على عجل واستدار ناحيتي مصافحا بحرارة طالبا أن ألقاه مرتين أسبوعيا بدعوى الاطمئنان وتذليل الصعاب مرة في السادسة مساء الاثنين ومرة في نفس التوقيت مساء الخميس وانصرفت بمزيد من الخوف والقلق خاصة من هذا الرجل الآخر الذي ظل صامتا طوال الوقت و لم يفتح فمه أبدا .

وزير الشباب يلقاني بالترحاب .

حين وصلت إلى وزارة الشباب كان الطريق إلى مكتب الوزير ممهدا بغير انتظار أو عوائق وحين التقيت به وكان يدعى كريم الملا صافحني باهتمام وأجلسني إلى جواره مكررا عبارات الترحيب باللهجة العراقية وللمرة الثانية دخل رجل ليحيى ويجلس لكنه كان هذه المرة بشوشا يشارك في الحديث أحيانا عرفت فيما بعد أنه عدنان الدهش مسئول العلاقات العامة في مكتب مصر .

ناقشني الوزير طويلا في أوضاع مصر وأبدى إعجابه بمقالي الذي نشر في صحيفة الثورة ثم رفع سماعة تليفونه وطلب مسئولا آخر ثم أبلغني أنه بوسعي أن أتسلم عملي من الغد في المؤسسة العامة لتدريب الشباب في بغداد وأن أسلمهم هناك الأوراق المطلوبة للتعيين وقال عدنان الدهش مبتسما : « سأكون في انتظارك هناك عندما تذهب » وشكرت الوزير وانصرفت مدهوشا وحائرا يملؤني الخوف من المستقبل والرعب من المجهول وقفزت إلى ذهني كل المعلومات التى أعرفها عن العراقيين والبعث وفكرت في الهرب والعودة إلى مصر وإن كنت في ذات الوقت

قد اكتشفت أنني بكل هذه الأهمية وكادت أن تتسلل إلى نفسي وسط كل مخاوفي وقلقي وفزعي مشاعر أخرى من السعادة والفخر والإحساس بالأهمية .

مزيد من المقالات ضد كامب دافيد .

لم أنم ليلتها قلبت الأمور على كل وجوهها وأدركت أنه لم يعد أمامي غير الطريق إلى قلب البعث لا الطريق إلى مصر مرة أخرى لكنني تخوفت مما يمكن أن تجره عليَّ في مصر تلك الدراسة التي نشرتها في صحيفة الثورة ويبدو أنني كنت أحاول أن أجد المبررات لكي أخوض تجربة العراق والبعث وأن استكشف المجهول وكان أكثر ما يؤرقني هو هذا الرجل الصامت الذي لازمني لدى حسين طعمه وفي هذه الليلة كتبت مقالا جديدا بعنوان « الساقطون والذين سقطت أقنعتهم » هاجمت فيه كتابا مصريين أيدوا السادات في رحلته إلى القدس ومرة أخرى نشر المقال على ثلثي الصفحة الثقافية في صحيفة الثورة كنت فيما يبدو أضع مزيدا من العراقيل في الطريق إلى مصر وأميل إلى المغامرة واستكشاف المجهول في العراق .

* * *

ألحقت للعمل بمؤسسة هامة

ذهبت إلى المؤسسة العامة لتدريب الشباب وعلى الفور صدر قرار تعييني بها بعد لقاء قصير مع لطفي أحمد رئيس المؤسسة وعرفت أنها مؤسسة شبه عسكرية تتولى تدريب الشباب والفتيات بشكل خاص على مهام عسكرية بينها القفز بالمظلات من الطائرات وفهمت داخل هذه المؤسسة ما يخطط لي حين اكتشفت أنها مؤسسة مهمة لا يعين فيها إلا العراقيون وبشرط انتمائهم إلى الحزب وألحقت بإدارة التثقيف بها وأعددت عنها تحقيقا صحفيا نشر في مجلة الطيران العراقية وأعددت لها لأول مرة مكتبة فخمة وكبيرة استغرق العمل في إعدادها شهرا ودربت فتاة عراقية تدعى صبيحه على إدارتها .

كان رئيس المؤسسة يعاملني بشكل جيد ويعتمد على خبرتي فيما اعتبره نهوضا بإدارة التثقيف التي كانت لا نشاط لها وكان الرجل لواء سابقا بالجيش وأبلغني بنفسه أنه صديق لأحمد حسن البكر رئيس الجمهورية وكلفني ذات يوم بأن أعد له خطابا يلقيه في احتفال تقيمه المؤسسة بمناسبة ذكرى تأسيس الحزب التي تحل في أبريل وكان سعيدا عندما قرأ الخطاب .

أنا المسئول عن هذه المؤسسة .

كان معاون رئيس المؤسسة شخصية أكثر جاذبية وثقافة من رئيس المؤسسة اسمه مجيد سلطان وتعود أن يتردد على مكتبي كل يوم لمدة ساعة أو تزيد يتجاذب معي أطراف الحديث عن مصر والأمة العربية وكنت أستشعر أنه مكلف بذلك وكان في كل مرة يحدثني عن الحزب ونضالاته وأهدافه وكنت أعرف أن هذا هو هدف اللقاء أساسا . قال لي في أحد لقاءاتنا « لا تظن أن صباح ـــ وكان مديرا لإدارة التثقيف ـــ رئيسك إذ لا علاقة له بالثقافة عموما كل ما في الأمر أنه شقيق سفيرنا في إيران ومن جماعة السيد النائب ـــ كان يقصد صدام حسين وكان يقصد أن صباح تكريتي ـــ إنك أنت المسئول عن كل شيء في هذه الإدارة » .

* * *

هل تنضم للحزب ؟

وبعيدا عن المؤسسة العامة لتدريب الشباب كانت الأمور كأنها تصب في اتجاه واحد .. كنت ألتقي بمدير مكتب مصر مرتين في الأسبوع وبدأ يحدثني هو الآخر عن الحزب وأهدافه ونضالاته وفي كل مرة كان يعطيني كتيبا صغيرا لأقرأه وفي المرة التالية كان جزء من الحوار يدور حوله وبدأت كل الأمور تتكشف أمامي حين سألني حسين طمعه عن إمكان انتمائي للحزب وأجبته بأني منتم في مصر لحزب

التجمع وأن فكري أساسا ينهل من المنهج القومي الاشتراكي الذي يعرف بالفكر الناصري وأنني أعتبر نفسي صديقا للحزب وهذا يكفي .

ليس أمامك غيره !

في لقاء آخر ذهب حسين طعمه إلى أبعد من ذلك حين قال إن حزب البعث يعتبر نفسه الحزب الوحيد المؤهل لتحقيق أهداف النضال العربي ويرى أن كل الأحزاب والقوى الأخرى تفتقد الرؤية الصحيحة والفكر الثوري والإمكانات التي تحققت للبعث بعد وصوله إلى السلطة في العراق وأن هذا المكتب الذي يقود العمل فيه هو أحد مكاتب القيادة القومية ومهمته الأولى والرئيسية هو أن يصبح في مصر تنظيم بعثي قوي وأن القيادة قد كلفته بكسبي إلى صفوف الحزب وأنه ينبغي أن أساعده في أن ينجح في هذه المهمة بأن أوقع استمارة انضمام للحزب وعندما لاحظ ترددي قال في حسم « أيها الرفيق إن لك شهرا تلتقي بي في نهايته إما أن تصبح بعثيا وإما أن تعتبرني القيادة فاشلا » .

وحاولت تهدئة الموقف فقلت بابتسامة مفتعلة « يبقى أسبوع على انتهاء المهلة » .

ملء استمارة العضوية مع آخرين .

وبعد أسبوع ذهبت للقاء حسين طعمه فأبلغني مسئول الأمن بالمكتب أنني سأقابل الرفيق عدنان الكبيسي في مكان آخر واستدعى سيارة نقلتني إلى مكان عرفت فيما بعد أنه مقر الفرقة العربية بالمسبح وهناك انتظرت قليلا في صالة واسعة وتوافد ثلاثة مصريين آخرين ووصل عدنان الكبيسي وصحبنا نحن الأربعة إلى غرفة جلسنا فيها حول منضدة دائرية وفتح حقيبته وأخرج أربع استمارات وأعطى كل واحد منا استمارة وطلب أن نملأ بياناتها ونوقعها كانت هذه هي استمارة الانتماء إلى الحزب ولم يكن قد بقي سبيل واحد لعدم توقيعها بعد أن رأيت الغدر مطلا من عيون حسين طعمه في لقاءاته الأخيرة رغم أن انطباعاتي عنه كانت جيدة وأنه فى الأساس شخصية مهذبة ومثقفة ومريحة . كان توقيعي على الاستمارة قد أصبح تحصيل حاصل وهكذا وقع الثلاثة الآخرون الذين عرفتهم بأسمائهم فيما بعد الدكتور أحمد عارف

مستشار وزير الإسكان والمهندس حسين الكاشف خبير في أحد المصانع الحربية والمهندس مصطفى الغروري مقاول وإن كنت قد تبينت فيما بعد أنه ليس مهندسا وليس مقاولا ؟

المهم أن هذه كانت خلية حزبية وأن الجلسة يومها كانت أول اجتماع حزبي والكارثة أن مسئولنا الحزبي كان هو عدنان الكبيسي مسئول التنظيم في مكتب مصر المتجهم عادة الصامت غالبا المثير للقلق وللخوف بغير حدود .

أنتم الآن بعثيون .

وتكلم أبو الهول العراقي لأول مرة فقال « أنتم الآن بعثيون بدرجة حزبية صغيرة تسمى درجة المؤيد وفي المرحلة التي بدأت بالاتصال بكم كنتم أصدقاء للحزب نحاول كسبكم إلى صفوفه لتكونوا مناضلين من أجل أهدافه التي هي أهداف الأمة العربية وتتطلع القيادة إلى أن يكون في مصر تنظيم بعثي قوي باعتبارها أكبر قطر عربي وأنتم الآن ومعكم آخرون في خلايا أخرى نواة هذا التنظيم ولكن هذه الخلية هي أهم الخلايا التي تكونت حتى الآن لهذا آمل أن تكونوا أهلا للثقة التي منحتها لكم القيادة وسوف تعقد خليتكم اجتماعا في هذا الموعد من كل أسبوع ولا يجوز التخلف عن الاجتماع لأي سبب كان كما لا يجوز لبعثي أن يسافر حتى إلى خارج بغداد دون إذن مسبق من الحزب ، ويبدأ الاجتماع الحزبي عادة بترديد شعار الحزب ـــ أمة عربية واحدة ذات رسالة خالدة ـــ وقوفا ثم تناقش الأمور الحزبية المختلفة والموقف السياسي وموضوع من المنهاج الثقافي وفي هذه المرحلة نتناول موضوعات الجزء الأول من هذا المنهاج » وضغط على زر إلى جواره فدخل من يحمل كتبا وزعها علينا مؤكدا على سرية هذا الكتاب بالذات وعدم جواز الاطلاع عليه لغير البعثي وبأن كل ما يدور داخل الاجتماعات يعتبر أيضا أسرارا لا يجوز إذاعتها ، وطلب إلى كل منا أن يختار اسما حركيا يتعامل به في صفوف الحزب وأبلغنا أن انضمامنا إلى الحزب هو الآخر سر لا يجوز أن يعرفه أحد ، وأنهى الاجتماع ومضى كل إلى سبيله .

لكن اسمي قد أصبح منذ يومها أبا داود أو على وجه الدقة المؤيد البعثي أبو داود وكان اليوم هو العاشر من فبراير عام 1978 .

الكسب الحزبي والمستويات القيادية والتقارير

إذاعة صوت مصر العروبة

في اليوم التالي للاجتماع الحزبي الأول استدعاني حسين طعمه إلى مكتبه وأبلغني أن القيادة قررت أن تنفذ توصيات القمة العربية الطارئة وأن نبث برنامجا إذاعيا على موجة إذاعة صوت الجماهير باسم صوت مصر العروبة ليصل إلى المستمع العربي في مصر كجزء من الإعلام الذي يستهدف مقاومة منهج الصلح مع إسرائيل وسألني عن إمكان أن يكون لي دور في هذه الإذاعة وأبلغته أنني غير راغب في ذلك ولست مستعدا له وليست لدي خبرات للعمل في الإذاعة وحاول أن يقنعني لكنني أبديت إصرارا على الرفض متعللا بأن لي أسرة في مصر يمكن أن تتعرض لمشاكل عديدة فقال لي : « إذن تستمع إلى الإذاعة في العاشرة من مساء كل ليلة وتكتب رأيك فيما تذيعه يوميا وملاحظتك عليها » فأبديت موافقتي .

الأمر الحزبي واجب التنفيذ .

وهممت للانصراف لكنه طلب أن أجلس مرة أخرى وبدأ يتحدث باستفاضة قال حسين طعمه :

« عندما تتقدم في الحزب ستعرف أن البعثي لا يستطيع أن يرفض أمرا حزبيا أو أن يناقش تكليفا من أي نوع أو أن يتردد في تنفيذه ولكنك لا تزال في بداية المشوار أرجو أن تفهم مني عدة أمور عن الحزب والحزبيين حتى تستريح في المستقبل ولا تعرض نفسك لمشاكل من أي نوع إنني أعتبرك مسئوليتي وأعتز بك لهذا لا أريد أن أتركك تفهم بالتقسيط على طريقة عدنان الكبيسي » وكانت النقاط التي

ركز لي عليها تتلخص فيما يلي :

القيادة القومية .

أولا : أن القيادة القومية تتكون من قيادات قطرية تنتمي كل قيادة منها إلى قطر عربي يكون مستوى التنظيم فيه قد وصل إلى مستوى كبير وشكل قيادته القطرية لكن الأقطار التي لايزال تنظيمها محدودا كما هو حال القطر المصري فإن الذي يمثله هو مكتب كهذا المكتب الذي نلتقي فيه .

ثانيا : أن الطريقة التي جندني فيها للحزب أو كسبني بها إلى صفوفه حسب تعبيرهم الشائع ليست هي طريقة الكسب الحزبي المتبعة إلا في حالة عناصر متميزة مثلي وأنه حين نشر مقالي الأول في صحيفة الثورة اجتمع المكتب الثقافي بالقيادة القومية لدراسة هذا المقال لشموله وعمقه وأهميته « وأوعز المكتب الثقافي إلى مكتب مصر بضرورة كسبك إلى صفوف الحزب وبمجرد دخولك إلى هذا المكتب أصبحت صديقا وأصبح انتماؤك إلى الحزب تحصيل حاصل وإلا تعرضت أنا للعقاب » . وأخرج حسين طعمه وهو يتناول هذه النقطة عددا من مجلة الوطن العربي التي تصدر في لندن برئاسة وليد أبو ظهر وفتحها على صفحة معينة وقال : « هل قرأت هذا لقد اختارت هذه المجلة مقالك كأفضل ماكتب عن مبادرة السادات » .

وأردف حسين طعمه قائلا : « لهذا كان كسبك مهمتي شخصيا لكن الكسب الحزبي ليس مهمة رفاق على هذا المستوى الحزبي ولا الاجتماعات الحزبية مهمة رفاق على مستوى الرفيق عدنان الكبيسى » .

إن الكسب الحزبي هو أهم واجبات أي بعثي ويمارسه الأنصار والأنصار المتقدمون حتى درجة عضو فرقه لكن المستويات القيادية العليا في الحزب لديها مهام أخرى .

الدرجات الحزبية .

ثالثا : أن الدرجات الحزبية تبدأ بعد انتهاء مرحلة الصديق بدرجة المؤيد وبترقيته يصبح نصيرا ثم نصيرا متقدما ثم يرشح للعضوية وبعد أن ينهي البعثي مرحلة الترشيح للعضوية بنجاح يصبح مرشحا للعضوية لمدة ستة شهور وقد تزيد يقسم بعدها يمين الولاء للحزب وللثورة ويصبح بعد ذلك عضو فرقة ومحل ثقة الحزب وتتسع دائرة نضاله الحزبي ويرقى بعدها إلى عضو قيادة فرقة ثم إلى عضو شعبة فعضو قيادة شعبة ثم إلى عضو فرع فعضو قيادة فرع ثم إلى عضو قيادة قطرية ، وحين يصبح أمين سر للقيادة القطرية يكون قد أصبح عضوا في القيادة القومية وهي أعلى سلطة قيادية في الحزب ويتضح من ذلك أن القيادة القومية تشمل عدة قيادات قطرية وهي قيادة الحزب في قطر معين بينما القيادة القومية هي قيادة الحزب على امتداد الوطن كله وأن القيادة القطرية تضم قيادات الفروع وهي قيادات الحزب في محافظات هذا القطر التي تضم بدورها قيادات شعب وهي قيادات التنظيم في مناطق واسعة من هذه المحافظة أو تلك وتتدرج إلى قيادات فرق وهي قيادة الحزب في منطقة محدودة أو شارع رئيسي .

كانت هذه هي أهم النقاط التي تناولها حسين طعمه في شبه محاضرة ألقاها على مسامعي بعدها عاد ليسألني مرة أخرى عن إمكان دور أساسي لي في إذاعة صوت مصر العروبة فلما استشعر ترددي قال : « حسنا سنرى ذلك في المستقبل ولكن لا تنس أن تسلم تقريرا أسبوعيا عن متابعتك لها للرفيق عدنان الكبيسي » وصافحته وانصرفت .

* * *

الكتاب السري لحزب البعث .

عدت إلى فندق الأمراء الحديث في هذه الليلة وفتحت المنهاج الثقافي

السري ــ الجزء الأول ــ وقرأت أول موضوع فيه وكان يتحدث عن نشأة هذا الحزب في سوريا في أبريل عام 1942 على يد مجموعة من الرفاق بينهم ميشيل عفلق الذي يعتبر القائد المؤسس وضيف الرزاز وشبلي العيسمي وآخرين ويصف هذا الحزب بأنه حزب قومي يجوز لأي عربي أن ينتمي إليه كما أنه حزب انقلابي ثوري يستهدف الوصول إلى السلطة في كل أقطار الوطن العربي بإحداث انقلاب جذري في هذه الأقطار بهدف أن تتسلم القيادة القطرية السلطة منها وأن أهداف هذا الحزب هي الوحدة والحرية والاشتراكية وشعاره أمة عربية واحدة ذات رسالة خالدة .

أنتهز فرصة وأهرب إلى مصر :

وتركت المنهاج الثقافي وذهبت إلى إدارة الفندق كان أبو حازم جالسا بمفرده في غرفة الإدارة وكانت الساعة قد جاوزت الواحدة بعد منتصف الليل وبادرني أبو حازم بسؤال قال إنه تردد منذ شهر في أن يسأله : « هل أصبحت بعثيا ؟ » وأجبته بالنفي فقال وقد أكفهر وجه : « ياولدي لقد أصبحت بعثيا هذا ما يمكن أن يعرفه أي عراقي يلمح في يدك الكتاب الأزرق الذي عدت به أمس . لقد حاولت أن أساعدك حين أرسلت مقالك إلى جريدة الثورة خاصة وكان لك عندي أكثر من شهر بغير عمل ومنذ أحسست أنهم يحاولون إدخالك إلى هذا الحزب وضميري يعذبني » .

لأول مرة يتحدث معي أبو حازم بهذه الصراحة والوضوح واستطرد قائلا : « إنني لست بعثيا وأعرف أنك لم تكن تريد أن تكون بعثيا ولا حظت معاناتك حين كنت تذهب إلى هذا الذي ، حدثك بالتليفون أول مرة . إنني عراقي شيعي ولن أكون بعثيا أبدا ولن أسمح بذلك لحازم(*) ولم يعد يفيد الآن إلا أن أقول لك حاذر واحترس وفي أول فرصه تتاح لك عد إلى مصر » كان حديث أبي حازم غريبا مدهشا ومفاجئا لهذا سألته : « ألا يخشى أن أبلغ الحزب بحديثه » فأجاب بثقة : شهران من العشرة معك تكفي لأن أفهمك ولأنني أحببتك فإنني أعرف أنك تبادلني نفس المشاعر إنني لست من أبناء بغداد أنا من كربلاء هل سمعت عنها » قالها بانفعال ثم

(*) ابنه الوحيد .

سكت بعدها تأكدت من إخلاصه وعلمت أنه شيعيا يعادي الحزب وينتمي إلى صفوف حزب معارض هو حزب الدعوة وبعدها أصبحنا صديقين حميمين نتبادل الأفكار والأسرار والمشاعر الطيبة رغم أنه كان يكبرني بأكثر من عشرين عاما وظل الصديق العراقي الوحيد حتى رحلة الهروب من معقتل البعث وجحيم صدام حسين .

* * *

عبدالناصر متآمر على حزب البعث .

استمرت اجتماعاتنا على مدى شهرين بقيادة عدنان الكبيسي الذي كانت كراهتيي له تزداد يوما بعد يوم فلقد كان متعنتا متعجرفا جاهلا لا يملك أية ثقافة عامة خارج حدود كتيبات البعث وأدبياته وكان يستشيط غضبا كلما ذكرت أمامه اسم عبدالناصر في أي من الاجتماعات ، وذات مرة خرج عن شعوره حين نسيت وذكرت أمامه اسم عبدالناصر مسبوقا بالقائد الخالد وقال في حدة : « هذا الرجل كان متآمرا على الحزب وليس بوسعك أن تكون بعثيا وناصريا في آن واحد » وفي مرة أخرى أكد أن رأيه كان دائما أنه لا يجوز كسب الناصريين إلى صفوف الحزب وأنحى باللائمة في هذه الكارثة كما سماها على الرفيق حسين طعمه وكان بوسعي أن أفهم أن بين الرجلين عداء صامتا وأن كلاهما يكره الآخر ولم يكن بوسعي شيء آخر غير أن أتلقى عبارات الكبيسي السخيفة وأن أتحمل نظراته المتعالية في صمت .

أعضاء الخلية .

لكن العلاقة بيني وبين بقية عناصر الخلية كانت قد تمت وأصبحت صداقة عميقة ولقد كانوا ثلاثة من خيرة شباب مصر خففت صحبتهم عني آلام الغربة وبشاعة عدنان الكبيسي .

كان الدكتور أحمد عارف حاصلا على دكتوراه في الهندسة المعمارية ويعمل مستشارا لوزير الإسكان الذي كان حينئذ هو طه يس رمضان الرجل الذي يلي

صدام حسين في الترتيب القيادي البعثي وكان هو أيضا المشرف على مكتب مصر ولهذا أبلغ الدكتور عارف أنه ينبغي له أن ينتمي إلى صفوف الحزب حتى يتسنى له الاستمرار في العمل معه وكان الرجل خالي الذهن من كل أمور السياسة أو كما قال لي ذات ليلة إن أفكاري هي عكس أفكار الناس إنني أميل في مصر إلى حزب الوفد .

وكان حسين عارف مهندسا مصريا صعيديا وشهما قدم بعقد عمل كخبير في مؤسسة مهمة ثم التف حوله عدد من البعثيين مارسوا عليه ضغوطا عديدة وصلت إلى حد التهديد باعتقاله بحجة أنه اطلع على بعض أسرارهم واستسلم الرجل في النهاية وانتمى .

وكان مصطفى الغروري هو الذي سعى إلى الانضمام إلى الحزب وادعى أنه مهندسا ويعمل مقاولا في مصر وحصل على مقاولات في منشآت هامة بينها منشأة البكر العسكرية وظل بالنسبة لي لغزا إلى أن وجدت له حلا حين عدت إلى مصر ولكنه كان على أية حال رجلا ومثقفا ومصريا صحيحا .

استمرت صحبتنا معا لمدة طويلة وظل عدنان الكبيسي مسئولنا إلى نهاية شهر مارس عام 1978 ثم عهد بمسئوليتنا إلى الرفيق عبدالرزاق الجنابي كنا قد رقينا إلى درجة النصير وكان عدنان قد أنهى مهمته معنا عند هذا الحد وكان ذلك بالنسبة لي شيئا مريحا للغاية في أول اجتماع له معنا أكد عبد الرزاق الجنابي أن هذه مرحلة جديدة من مراحل النضال الحزبي .

محاولة تجنيد المصريين .

وأن هناك تكليفين جديدين يتعين على كل منا أن ينفذها بشكل جدي ودقيق أما التكليف الأول فهو الكسب الحزبي وهو يعني أن على كل بعثي أن يتحرك في صفوف المصريين وأن يعطر علاقته بهم وأن يلاحظ مدى استعدادهم للانضمام إلى الحزب وأن يحاول إقناعهم بذلك وقال إنه بمجرد ملاحظة استعداد أي مصري

للانضمام فإن علينا إبلاغ الحزب لقيد اسمه في سجلات أصدقاء الحزب ولإرساله إلى جهات أمنية لمتابعتهم وسوف تساعدكم الجهات الأمنية في عملية الكسب . لم أفهم وقتها كيف يمكن أن تساعد جهة أمنية في عملية الكسب الحزبي إلا بعد أن تابعت بنفسي تلك الضغوط التي تمارسها هذه الأجهزة على مصريين عديدين بهدف إقناعهم بالانضمام حتى يشعر المصري أن لاخلاص له من مضايقاتهم بغير الانتماء كما تابعت بنفسي تعليمات حزبية صدرت إلى رؤساء المؤسسات والمصالح الحكومية تكلفهم بالمساعدة في كسب المصريين إلى صفوف الحزب بالتهديد تارة والإغراء تارة أخرى وفي حالات كثيرة فصل مصريون من أعمالهم بسبب إصرارهم على عدم الانتماء إلى الحزب وتلقفتهم أجهزة الأمن بإجراءات وصلت إلى حد توقيفهم حتى اضطروا إلى دخول الحزب فأعيدوا إلى أعمالهم .

طه يس رمضان مسئول مصر في الحزب .

قال عبد الرزاق الجنابي إن القيادة مهتمة إلى أقصى درجة أن ينمو التنظيم المصري نموا سريعا لهذا أسندت مهمة الإشراف على التنظيم المصري إلى الرفيق طه يس رمضان وأضاف أن مهمة الكسب الحزبي في هذه المرحلة هي الأولى ضمن اهتماماتنا وأنها شرط أساسي لتصعيد البعثي ، إلى درجة حزبية أعلى وأن هذه المهمة تبدأ بأن يجند البعثي أفراد أسرته إذا كانوا موجودين معه في العراق زوجته وأشقاؤه وأضاف أنه ليس من واجباتكم أن تدققوا كثيرا في توعية هؤلاء الذين تتحركون لكسبهم فهذه تتولاها الجهات الأمنية والحزبية الأخرى .

لابد من كتابة التقارير .

وأما التكليف الثاني الذي حدده لنا عبدالرزاق الجنابي في هذه المرحلة فهو كتابة التقارير وهي التي قسمها إلى ثلاثة أنواع : التقرير الثقافي ؛ ويشمل رؤية خاصة في واحد من موضوعات المنهاج الثقافي أو كتيب من كتيبات الحزب ، والتقرير السياسي ؛ هو تحليلات البعثي لموقف أو خبر سياسي وللأوضاع السياسية في مصر عموما وأما

النوع الثالث ؛ فهو الذي ركز عليه مدعيا أن على الحزب أن يحمي نفسه بنفسه وأن أجهزة الأمن لا تستطيع أن تؤدي هذه المهمة وحدها .

الإعدام عقوبة من يعلم ولا يبلغ .

لهذا فإن على البعثي أن يرفع تقريرا أمينا حول المتعاملين معه وكل من يصادفهم في حياته يضمنه مدى ولاء هؤلاء الأشخاص للحزب وللثورة أو مدى عدائهم ومعارضتهم وعلاقات هؤلاء بالقوى والأحزاب المعادية وأجهزة الأمن والمخابرات في الدول الأخرى وأكد أنه يعاقب بالإعدام كل من يثبت أنه علم عن آخرين معلومات من هذا القبيل ولم يبلغ عنها وأضاف قوله : « لهذا سوف ترون أن ظهور فرد واحد في عائلة يعادي الحزب أو يناهضه يعرض الأسرة كلها للإعدام أو للاعتقال ، فلقد كان من المفترض أن يبلغوا عنه » .

صرت مخبراً أكتب التقارير .

خرجت من هذا الاجتماع وأنا أشعر بمدى السقوط الذي أوصلت نفسي إليه بعد أن حولت نفسي من مناضل سياسي إلى مجرد مخبر ومورد أنفار إلى مكتب مقاولات يسمى بمكتب تنظيم مصر وعدت إلى فندق الأفراد الحديث وتوجهت إلى غرفة الإدارة فلم أجد محيي عبدالكاظم وجدت بدلا منه ابنه حازم الذي أبلغني أن والده نائما في غرفته ذهبت إليه وأيقظته وتحدثت إليه بكل ما دار في نفسي وتركني أتحدث حتى انتهيت ثم قال .

ابن يبلغ الحزب ضد أمه .

« ياعزيزي سوف ترى بعد ذلك ماهو أمر وأعجب إن هؤلاء الذين أسسوا حزب البعث هم تلاميذ مخلصون في مدرسة الفاشية التى أسسها هتلر وموسليني حتى الآن لم تعرف شيئا . إن ابنا عراقيا أبلغ أن والدته قد سبت الحزب خوفا من أن يعدم معها فلقد تهورت السيدة وفعلت ذلك أمام أحد أصدقاء ابنها وخشي الابن أن يسبقه الصديق إلى كتابة تقرير بما سمع فتولى هو المهمة الحية البشعة » ثم

قال في حسرة : « هل يزيد تعداد الناس في مدن مصر مع مرور السنين أو ينقص »
قلت له : « يزيد » قال : « حسنا لا تزيد أعداد السكان في كربلاء والنجف أبدا
لأن أتباع يزيد في العراق يتولون المهمة بمهارة ويقتلون في مقابل كل طفل يولد
رجلا لمجرد أنه يمارس الطقوس الإسلامية ويتبع منهج الله ويرفض منهجهم »

ودلفت إلى غرفتي مكتئبا من هول المصير وبشاعته .

حسين الكاشف : الجريمة والعقاب

إعدام الشيوعيين .

عام 1988 كانت العلاقات بين حزب البعث والأحزاب الشيوعية في العراق قد تأزمت إلى حد كبير وبدأت الأجهزة الأمنية تطارد عناصر هذه الأحزاب لاعتقالها أو لاغتيالها وأغلقت صحيفة « الشعب » الناطقة بلسانهم وكتب طارق عزيز عدة مقالات في الصحف الرسمية هاجم الشيوعيين العراقيين فيها هجوما مالا هوادة فيه وصدرت التعليمات بإعدام أي منتسب للقوات المسلحة يثبت تورطه مع الأحزاب الشيوعية العراقية وصدرت التعليمات إلى عناصر حزب البعث بالإبلاغ فورا عمن يعرفونهم من الشيوعيين في محال سكناهم أو دوائر عملهم أو في أي مكان آخر وأبغلنا عبدالرزاق الجنابي بهذه التعليمات .

كانت المؤسسة التي يعمل فيها المهندس حسين الكاشف تضم عددا من الشيوعيين ، وكان هو على علاقة طيبه بعدد من هؤلاء دون أن يدقق في هوياتهم السياسية وكما قال لي مهندس عراقي بعد ذلك فلقد كان المهندس المصري يحب الجميع ويحبه الجميع ويبدو أن عبدالرزاق الجنابي انفرد عقب أحد الاجتماعات الحزبية بحسين الكاشف وطلب إليه أن يكتب تقريرا عن زملائه في العمل وانتماءاتهم السياسيه لكنه لم يفعل .

زارني حسين الكاشف ذات مساء وصحبته إلى شارع أبي نواس وعلى مقعد في أحد حدائق هذا الشارع جلسنا وتحدثنا فإذا به قنبلة موقوتة يكاد يتفجر غيظا ولا يتصور أن يتحول مصري إلى جاسوس لعراقيين على عراقيين آخرين وأبلغني أنه يعرف عددا من هؤلاء الذين يشك في انتماءاتهم إلى الحركة الشيوعية حسب التعبير الذي استخدمه ولكنه تساءل وكأنه يتحدث إلى نفسه « ما دخل مهندس مصري في عملية قذرة كهذه » .

فصل زميلي من الحزب .

وذات صباح داهمت قوات أمن عراقية المؤسسة التي يعمل فيها حسين الكاشف واعتقلت ثمانية شيوعيين كان بينهم مهندس عراقي صديق له وبينهما مودة وزيارات متبادلة وبسذاجة شديدة أو برجولة خرج حسين الكاشف من عمله وتوجه على الفور إلى منزل المهندس العراقي ليبلغ زوجته نبأ اعتقال زوجها وفي نفس اليوم أصدر عدنان الكبيسي قراره بفصل حسين الكاشف من الحزب وفي الاجتماع التالي أبلغنا عبدالرزاق الجنابي بقرار الفصل ويبدو أن حسين الكاشف كان قد أبلغ به فلم يحضر لكنه زارني في المساء وعلى وجهه كل علامات الحزن والخوف والفزع وخرجنا معا نمشي في شارع الرشيد ونتحدث . قال حسين الكاشف : « إنه يعيش حالة من الرعب قد تسلمه إلى الجنون وأنه جاء إلى العراق قبلي بكثير ويعرف أن هؤلاء الناس إرهابيون إلى أقصى حد وأن فصله من الحزب سوف يعني بالضرورة أحد احتمالين : « الاعتقال أو القتل » وسألني بلهفة « وهل يمكن أن تساعدني بشيء إنني أعرف أنهم يهتمون بك أكثر وأن لك علاقة بحسين طعمه ووعدته أن أتشفع له لديهم » .

مقتل زميلي حسين الكاشف .

بعد ثلاثة أيام ذهبت لزيارة حسين الكاشف والاطمئنان عليه . كان يسكن في عمارة بشارع السعدون وكان يسكن إلى جواره مهندس مصري . لم يكن حسين الكاشف موجودا داخل شقته إنما كان هناك في ثلاجة مستشفى بغداد المركزي جثة هامدة هكذا أبلغني جاره دون أية تفاصيل . تجمدت في مكاني واستندت إلى الحائط وحاولت أن أفهم من جاره شيئا لكنه عزف عن الكلام تماما فتركته وذهبت أنعي نفسي قبل أن أنعاه .

أحسست أنني إذا لم أفعل شيئا فسوف أحتقر نفسي إلى الأبد وأن واجبي يقتضي على الأقل أن أعمل على نقل جثمانه إلى مصر وقررت أن أذهب إلى حسين طعمه وأطلب مساعدته في هذا الأمر .

وكما كان حسين الكاشف ساذجا فلقد كنت أنا الآخر ساذجا عندما تصورت أن حسين طعمه لفرط ثقتي فيه سوف يفعل شيئا فلقد أبلغني الرجل ببساطة أن المرحوم يعتبر من وجهة نظر التعليمات الحزبية مجرما إذ إنه خالف التعليمات الحزبية وتستر على أعدائنا ، ونصحني أن أخرج من هذا الموضوع تماما وإن كان قد أبلغني أن الجثمان سيصل إلى مصر بالطريق الإداري وشرح لي ما أسماه وقائع الجريمة التي ارتكبها .

كان يمكن أن تموت مثل حسين الكاشف .

وفي اليوم التالي استدعاني عدنان الكبيسي وذهبت إليه لأجده أكثر تجهما وشراسة وقال في حدة بالغة : « أيها الرفيق ليس هناك بعثي في هذا الحزب ينتمي إلى مسئولين إلا أنت . ليس من حقك أبدا أن تقابل مسئولا غير مسئولك بغير استدعاء وإذا كان الرفيق طعمه يوافق على استقبالك فتلك مخالفة حزبية » وأكد لي عدنان الكبيسي أن استمرار علاقتي بحسين الكاشف بعد قرار فصله مخالفة حزبية كبيرة كان يمكن أن تؤدي بي إلى نفس مصيره « لو لم يكن هناك من يعتقد في القيادة أنك تصلح لكي تكون بعثيا كبيرا » .

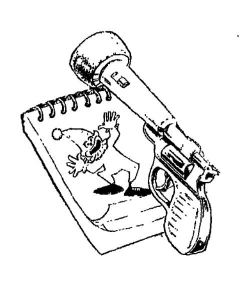
عدت إلى فندق الأمراء الحديث بأعصاب تكاد تشتعل وأحسست برغبة عارمة في الانتقام ولذت بأبي حازم وبكيت بين يديه على نفسي أو على المرحوم حسين الكاشف لست أذكر بالضبط .

التقيت بالمهندس المصري الذي كان يسكن إلى جوار حسين الكاشف مصادفة وقال لي : « كان رحمه الله يعيش أسود أيامه وسيطرت عليه فكرة الهرب لكن جواز سفره كان لدى المؤسسة التي يعمل بها وذات مساء قدم إليه ثلاثة عراقيين دخلوا ، كنت معه في تلك الليلة ولم يكن يعرف أيا منهم ، أخذوه إلى غرفة أخرى ووجدته يرتدي ملابسه صافحني وقبلني لأول مرة منذ تعارفنا وخرج معهم ولم يعد أبدا » .

كان هذا المهندس المصري قد قرر الرحيل عن العراق وكان يبيع سيارته وأشياءه الأخرى والتقيته في شارع السعدون وسألني إن كان كان يمكن أن أشتري

سيارته فلما اعتذرت له قال لي خذها بغير ثمن أريد أن أخرج من العراق بأقصى سرعة ممكنة ولا يمكنني ذلك بغير أن أتخلص من هذه السيارة واعتذرت له ومضيت . كنت أنا الآخر أفكر في الهرب و لم أكن بحاجة إلى أي شيء حتى ولو كان « سيارة تيوتا » بغير ثمن .

كانت جريمة قتل حسين الكاشف هي أول جرائم البعث التي قدر لي أن أتابع فصولها وأدقق في تفاصيلها وأن أتأكد بنفسي من أن كل ما قيل عن دموية هذا الحزب وإرهابه وبطشه كان صحيحا .



حسين الكاشف

قال لي تامر الجبوري إن حسين الكاشف كان شيوعيا أو متعاطفا مع الشيوعيين وإن معظم علاقاته في العمل كانت مع هؤلاء ومعظم صداقاته خارج العمل كانت معهم أيضا وأكد أن عدم تنفيذه لتعليمات الحزب والإبلاغ عنهم ورفع تقارير أمنية بأسمائهم ومواقفهم من الحزب والثورة يؤكد هذا الانتماء أو هذا التعاطف .

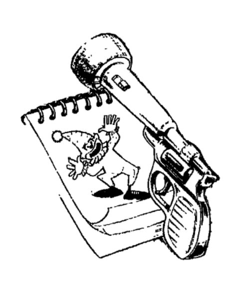
وأضاف تامر الجبوري أن الكاشف زار مهندسا شيوعيا عراقيا أكثر من مرة وأنه حين اعتقلنا هذا المهندس هرع إلى منزله وأبلغ أسرته برغم أنه كان بعثيا ويعرف أن العلاقة بهؤلاء محرمة وغير جائزة وادعى الجبوري أن المهندس العراقي الشيوعي كان هو مسئول الخليه الشيوعية بالمصنع وأن حسين الكاشف كان يوجد في منزله أثناء الاجتماعات التي عقدتها هذه الخلية ويمكن أن يكون قد تعاون معهم أو سرب أسرار الحزب إليهم .

وادعى الجبوري أنهم لم يقصدوا إلى قتله إنما حاولوا انتزاع اعترافات منه عن مزيد من أصدقاء هذا المهندس وعناصر خليته وعن مدى علاقته بهم وعن أسرارهم التي كان يعرفها وادعى في بداية الأمر أنه مات على إثر أزمة قلبية أثناء التحقيق معه لكنه في مناقشة أخرى قال بسخرية إن الكاشف لم يتحمل وسائلهم في انتزاع الاعترافات ووجد أن الطريق إلى الله أكثر يسرا وراحة !!

وقلت للجبوري إن حسين الكاشف كان يتصور أن كارل ماركس روسي وإن الشيوعية عنده لم تكن تعني أكثر من الإلحاد أو الكفر بالله وادعى الجبوري أن حسين الكاشف كان يضللني وأن مصريا بعثيا يدعى عبدالحميد باشا كتب تقريرا عنك قال فيه إن الحزب الشيوعي المصري حاول أن يجندك في مصر عندما كنت

معهم فى حزب التجمع لكنهم فشلوا وأن عناصر من هذا الحزب استضافتك في منزل شخص يدعى إبراهيم أبو الغيط في مدينة طنطا لهذا الهدف لكنك لم تستجب . وأن هذا التقرير من أسباب ثقتنا فيك .

كانت الوقائع صحيحه فيما يتصل بي لكن مارواه عن حسين الكاشف كان محض اقتراء وأي تحقيق يجرى الآن في بلدته بصعيد مصر سيكشف أن حسين الكاشف لم يكن يهتم بأي فكر سياسي و لم يقترب أبدا من أي نشاط سياسي وأنه سافر للعراق للعمل ليس أكثر ولولا الضغوط والتهديدات التي مورست عليه ما انتمى إلى حزب البعث لكنها الأقدار .



إذاعة صوت مصر العروبة وكلمة السر

مهمة جديدة .

استمرت اجتماعاتنا مع عبدالرزاق الجفالي لكن الخليه نقصت المهندس الذي ذهب ضحية الغدر البعثي وظلت هذه الاجتماعات روتينيه تبدأ كالعادة بترويد شعار الحزب وقوفا وبصوت مسموع ثم يستعرض المسؤول تعليمات الحزب ثم يسأل عن الكسب الحزبي ثم يطلب من أي منا شرح الموضوع الثقافي ثم ينتهي الاجتماع بالسؤال عن التقارير التي قد تكون في حوزة أي من عناصر الخلية ويردد الجميع شعار الحزب وقوفا وينصرف كل إلى حاله ويتجدد اللقاء .

وفي نهاية شهر أبريل عام 1978 أبلغني عبدالرزاق الجفالي بعد نهاية الاجتماع بأن مسئولا حزبيا سيتصل بي وسيكلفني بمهمة ينبغي تنفيذها وأنه بسبب هذه المهمة فإنني غير مكلف بشيء فيما يتصل بالروتينيات الحزبية كالكسب الحزبي أو التقارير أو خلافها إلا ما أريده وما يتسر لي شخصيا وأبلغني بكلمة السر التي سيستعملها المسئول حتى يتسنى لي التعرف عليه وتلقي تعليماته وتنفيذها وكانت « أبو خالد » .

كانت كلمة السر هي الاسم الحركي لهذا المسؤول الحزبي وكنت مدهوشا أن يتم استخدام مثل هذا الأسلوب في الاتصالات الحزبية وحاولت أن أعرف من عبدالرزاق الجفالي نوعية هذا التكليف لكنه أكد أن لا علم له به وأن ما أبلغني به هو ما أبلغته به القيادة .

لقاء عبدالمجيد فريد .

بعد أسبوعين من هذا التبليغ اتصل بي تليفونيا شخص قال إنه من المكتب

الثقافي بالقيادة القومية وأبلغني بكلمة السر وطلب أن أنتظر سيارة ستنقلني إليه في صباح اليوم التالي لإبلاغي بتكليف حزبي مهم . وذهبت إليه في الحادية عشرة قبل الظهر .ووجدت عنده شخصية مصرية عرفتها على الفور دون سابق لقاء .

كانت الشخصية المصرية هو الأستاذ عبدالمجيد فريد القطب الناصري البارز وكان المسئول العراقي هو فاضل الشاهر وكانا يتحدثان عن أوضاع مصر في حينها فاشتركت معهما في المناقشة وتعرفت لأول مرة على أحد أقطاب العهد الناصري أحد هؤلاء الذين عملوا إلى جانب القائد الراحل فأخلصوا له أو أساءوا إليه .

لجنة الإعلام المصري .

وانتظر فاضل الشاهر حتى استأذن ضيفه وأصبحنا وحدنا وأعاد الترحيب بي مرة أخرى ثم أبلغني التكليف الحزبي قال فاضل الشاهر : « تعرفت أن إذاعة صوت مصر العروبة تعمل منذ أكثر من ثلاثة شهور وكان لك دور في متابعتها لكنك على ما أعلم رفضت العمل فيها بشكل مباشر وأمس أبلغتني القيادة قرارا بتشكيل لجنة إعلام مصرية تكون الإذاعة وكل الأنشطة الإعلامية المصرية ضمن مسئولياتها ويسعدني أن أبلغك أنك أحد أعضاء هذه اللجنة » .

أطلعني فاضل الشاهر على صورة من القرار وبعض الأوراق في ملف كتب على غلافه ملف إذاعة صوت مصر العروبة .

كان نص القرار « تتشكل لجنة الإعلام المصري من الكاتب المصري أحمد عباس صالح رئيسا وعضوية كل من عبدالمنعم الغزالي ومحمد عفيفي مطر وأحمد عز الدين والرفيق سليمان فرحات والرفيق فاضل الشاهر » على أن تتولى هذه اللجنة مسئولياتها للإشراف الكامل على الإذاعة اعتبارا من أول أيار « مايو » 1988 .

وكانت الأوراق الأخرى تتحدث عن تطورات الإذاعة منذ إنشائها في نهاية يناير 1988 وحتى إصدار قرار القيادة بتشكيل لجنة الإعلام ، وفهمت من هذه الأوراق أن هذه الإذاعة جاءت ضمن تنفيذ مقررات القمة العربية الطارئة أخيرة التي

أوصت بضرورة مقاومة منهج الصلح مع العدو الصهيوني وأن القيادة كانت قد أسندت مهمة الإشراف عليها إلى أحمد عزالدين الذي كان يعمل بالمصادفة في المؤسسة العامة للإذاعة والتليفزيون العراقية بعد أن زكاه الأستاذ أحمد عباس صالح وأن هذا الوضع كان مؤقتا لحين ترتيب أوضاع هذه الإذاعة . وجاء في بعض هذه الأوراق تقارير رفعت إلى الحزب ترى أن أحمد عز الدين يوجه الإذاعة توجيها خاصا وأنه ليس كفؤا لإدارة عمل كبير كهذا وكان ضمن هذه الأوراق التقارير المرفوعة مني وبعد أن أنجزت الاطلاع على هذه الأوراق أعدتها لفاضل الشاهر .

الحزب هو الذي يدير إذاعة مصر العروبة .

ابتسم وهو يقول : « كل هذه الأوراق ليست مهمة الأهم أن تسمعني جيدا » فأبديت انتباها إليه فبدأ يتحدث بجدية شديدة : « يارفيقنا هذه الإذاعة بالفعل أنشئت بناء على مقررات القمة ولمقاومة منهج الاستسلام الساداتي ولكن الحقيقة الأهم هي أنها تصدر من عاصمة البعث الذي يعمل جاهدا لكي يصبح له في مصر دور فعال ولقد أسند الإشراف عليها لأحمد عز الدين مؤقتا في وقت لم تكن لدينا فيه كوادر مصرية مؤهلة لهذا الغرض ورفضت أنت أن تكون بديلا لأحمد عز الدين . الآن قدرت القيادة صراحة أن يدير الحزب هذه الإذاعة بنفسه ولأغراض تخدم توجهه لإنشاء تنظيم بعثي مصري فعال وللوجود داخل الحدود المصرية بقوة نحن أيها الرفيق سوف نستولي على الإذاعة ونديرها لأغراض الحزب وأهدافه ونوجهها توجيها بعثيا . أنا وأنت مكلفان بالتنفيذ واللجنة هي مجرد شكل حتى نحافظ على توازن علاقاتنا مع القوى الأخرى ، لقد رأيت أن أحمد عباس صالح هو رئيس اللجنة لكنك لا تعرف أنه مريض ويعالج في لندن منذ فترة ، محمد عفيفي مطر بعثي لكن القيادة لن تعتمد عليه كثيرا لأسباب ستعرفها فيما بعد وعبدالمنعم الغزالي شيوعي وسأتولى بنفسي مهمة السيطرة عليه وأحمد عز الدين ناصري وسنتولى معا تحجيمه وستقوم أنت بالدور الرئيسي الذي كان يقوم به » .

ستعود إلى مصر بعد تغيير نظام الحكم .

وأخرج فاضل الشاهر ورقتين أخريين أطلعني عليهما كانت الأولى تفيد بنقلي من المؤسسة العامة لتدريب الشباب إلى وزارة الإعلام بدرجة محرر وكانت الثانية تفيد بتفرغي تماما للعمل في مكتب الإعلام التابع لمكتب تنظيم مصر ونظرت لفاضل الشاهر وقلت له : « إنكم تقطعون كل الطريق التي كان ممكنا أن أسلكها إلى مصر » وابتسم فاضل الشاهر مرة أخرى وقال : « هذا المكتب الذي نجلس فيه الآن هو المكتب الثقافي بالقيادة القومية ويديره الرفيق طارق عزيز وهو نفسه المكتب الذي أبلغ القيادة عنك وأوعز بضرورة ضمك إلى صفوف الحزب بعد أن اطلعنا على مقالاتك في الثورة . إن لدينا آلاف المصريين البعثيين في بغداد والمحافظات الأخرى ونجند الشباب المصري في كل بلاد الدنيا عن طريق المنظمات الحزبية في الخارج ولكن القيادة تتأكد كل يوم أنك أنضج عناصر التنظيم المصري . لا تفكر في العودة إلى مصر الآن . إننا سنرتب لك شيئا وحين سيسمح لك الحزب بالعودة ستكون لمصر أوضاع أخرى وقد رأيت الأستاذ عبدالمجيد عندي . إننا في هذه المرحلة نتحالف مع كل القوى المصرية ونتعاون معها مع إيمان راسخ أن مستقبل مصر هو حزب البعث وأن مستقبل البعث هو في مصر ومن مصر » .

كانت الساعة قد قاربت الثالثة بعد الظهر ونهضت وصافحته وقال هامسا سنلتقي مرة أخرى قبل أول اجتماع للجنة الإعلام ومضيت .

وفي مساء اليوم نفسه استدعاني عدنان الكبيسي وأبلغني قرار ترقيتي إلى مؤيد متقدم وانتقالي إلى خلية بعثية أخرى وقال بلهجه عراقية : « سلم أغراضك فسوف تنتقل من الفندق إلى مسكن خاص في الشارع نفسه » .

وهكذا أصبحت في مسكن جديد ، عمل جديد ، ودرجة حزبية جديدة في يوم واحد دون أن تكون لي إرادة في ذلك كله ، هكذا هو البعثي يتحرك بقوة التعليمات وكأنه ترس في آلة أو أية تشبيهات أخرى .

طه يس رمضان يرسم خطة الاستيلاء على الإذاعة .

التقيت مع فاضل الشاهر مرة أخرى وأبلغني بخطة الاستيلاء على الإذاعة كما رسمتها القياده ــ ويعني ذلك أن أحد مكاتب القيادة قد وضع الخطة وأن طه يس رمضان أو طارق عزيز قد اعتمدها ــ وكانت الخطة تتلحض في أنه سوف يتم خلال الاجتماع الأول للجنة التركيز على أخطاء في توجهات الإذاعة السابقة وسوف أتولى أنا هذه المهمة من خلال إعادة ملاحظاتي التي سبق إرسالها في تقارير حزبية وسوف يتولى فاضل الشاهر حصر ملاحظات أخرى عن أخطاء إدارية ومالية مارسها أحمد عز الدين داخل الإذاعة ثم يعرض اقتراحا بأن يتولى هو شخصيا مراجعة المواد الإعلامية التي تذاع حتى لا تتعارض مع سياسه الدولة العراقية وتوجهات الحزب وسوف تتم الموافقة على هذا الاقتراح لأنني وهو وعفيفي مطر سنوافق وكذلك عبد المنعم الغزالي وسيخصص لي وله مكاتب في مقر المؤسسة العامة للإذاعة والتلفزيون وسأتواجد أنا بها بشكل مكثف وسيحضر هو يوميا مساء وحدد مدة شهر واحد لتنفيذ هذه الخطة يصبح بعدها أحمد عز الدين مجرد محرر لا أكثر ولا أقل وأتولى أنا كل اختصاصاته وحينما يتم ذلك سينسحب فاضل الشاهر تاركا لي كل شيء .

اللقاء مع المتآمرين .

وفي نهاية اللقاء طلب فاضل الشاهر أن نلتقي في المساء لنمر على عدد من الكتاب المصريين المقيمين في العراق والذين اختلفوا مع أحمد عز الدين وتركوا العمل في الإذاعة وقال : « نريدهم معنا في هذه الفترة » وكانوا ثلاثة هم : « مسعد التائه وسعد زغلول فؤاد وصافي ناز كاظم » .

وحين عقدت لجنة الإعلام اجتماعها الأول التقيت لأول مرة بالشاعر المصري محمد عفيفي مطر والصحفي عبدالمنعم الغزالي وأحمد عز الدين ونفذنا الجزء الأول من الخطة لكنني لم أكن سعيدا لسببين أولهما أنني بتولي مهام الإذاعة الرئيسية أكون قد أغلقت ما بيني وبين مصر « بالضبة والمفتاح » كما يقولون وثانيهما أنني أتعامل

ضمن مخطط تآمري يحول الإذاعة من عمل مصري يستهدف توعية الشعب المصري بحقيقة مايجري إلى عمل بعثي يستهدف التمهيد للزحف البعثي عليها لهذا زرت أحمد عز الدين في مكتبه في اليوم التالي للاجتماع واستقبلني بترحيب شديد ولعله يذكر جيدا ما قلته يومها فلقد نصحته أن يكون صبورا في المرحلة القادمة وأن يقبل أن نتعاون معا في إدارة هذه الإذاعة ليس لأنني أريد ولكن لأن هؤلاء الذين يستضيفوننا يريدون وقلت له بالحرف الواحد : « ثق أنني أريدك في موقعك وأريد نفسي إلى جوارك لأسباب شخصية » كان في كلامي قليل من الوضوح وكثير من الغموض وكنت أحذر أن يكون بين ما أبوح به أسرار يضع رصاص البعثيين في صدري . لكن أحمد عز الدين كان يشعر بما يخطط له وكان يبدو عصبيا أكثر مما ينبغي .

سارت الخطة في طريقها إلى التنفيذ وبدأت أتواجد في الإذاعة بشكل دائم وأراجع مع فاضل الشاهر مقالات الكتاب ومواد البرامج ونشرات الأخبار ونحدد أجور الجميع وحاول أحمد عز الدين عرقلة العمل لكنه لم يكن يعرف أن قرارات الحزب واجبة التنفيذ .

صافي ناز كاظم تدير المشاجرة .

دعونا جميع الصحفيين المصريين الموجودين في العراق إلى شبه مؤتمر عقد في قاعة وكالة الأنباء العراقية لضمان تعاونهم معنا وجاء الشيوعيون منهم والناصريون والبعثيون أيضا وتحول المؤتمر إلى خناقة مصرية أدارتها صافي ناز كاظم بكفاءة بالغة ضد من أسمتهم بالناصريين الإرهابيين الذين يوجهون الإذاعة وفق توجهاتهم الفكرية الخاصة وكانت تقصد أحمد عز الدين بهذا الهجوم ولم تكن تعلم رغم كونها حينئذ بعثية بدرجة نصيرة أن الإرهابيين الحقيقيين قادمون .

استمر تنفيذ الخطة بنجاح لكن خللا صغيرا في التنفيذ أطاح بفاضل الشاهر وبأحمد عز الدين في وقت واحد .

كان مكتب عز الدين أكثر اتساعا وفخامة من المكتب الذي خصص لفاضل

الشاهر ورأي المسئول البعثي أن يتبادل مع أحمد عز الدين مكتبيهما وقال إن هذا الإجراء سيكون دليلا على نجاح الخطة وإتمام تنفيذها ، لكن عند هذا الحد ترك أحمد عز الدين استقالته مرفوعة إلى طه يس رمضان ومضى . ورأت القيادة أن فاضل الشاهر فشل في أداء مهمته وأن استبعاد أحمد عز الدين نهائيا سيسبب مشاكل عديدة في أوساط المثقفين المصريين وسيضرب محاولات التعاون مع الناصريين لهذا اتخذت القيادة قرارها بإلحاق أحمد عز الدين محررا بصحيفة الجمهورية العراقية وإبعاد فاضل الشاهر عن الإشراف على الإذاعة وتسليم المهمة بكاملها إلى مكتب تنظيم مصر .

كان هناك سبب آخر لهذا القرار هو رغبة طه يس رمضان في سحب هذه المهمة من المكتب الثقافي وإلحاقها بمكتب تنظيم مصر وكان طه يس رمضان قد دعا اللجنة كلها إلى اجتماع معه حضره أيضا حسين طعمه مدير مكتب مصر وحضرته مع أحمد عز الدين وفاضل الشاهر لكن القرار كان موقعا بالفعل ولم يكن للاجتماع من هدف إلا أن يفهم طه يس رمضان حقيقة ما جرى وما يجري .

* * *

فاضل الشاهر .

ليس بوسع من يتعامل مع فاضل الشاهر إلا أن يحبه فهو إنسان طيب القلب واسع الثقافة خبير في الشئون المصرية عمل لسنوات عديدة في بداية السبعينيات ملحقا في السفارة العراقية بالقاهرة . كان حديثه ممتعا وكانت لغته خليطا من اللهجة المصرية والعراقية وعلاقاته بالمثقفين المصريين قديمة ووطيدة وكان هو الذي أرسل أحمد عز الدين من مصر إلى العراق ووفر له عملا في الإذاعة العراقية رغم اعتراض المخابرات العراقية وإصرارها على عدم الموافقة على قرار تعيين مصري في مؤسسة مهمة ولأسباب أخرى شرحها لي فاضل الشاهر وتتعلق بنوعية علاقة فاضل الشاهر مع أحمد عز الدين في القاهرة لكن القرار صدر بضغوط وإصرار من فاضل الشاهر وضمان

شخصي منه لهذا كان الرجل في قمة الغضب مما أسماه جحود أحمد عز الدين ونكرانه للجميل . لكنني شخصيا كنت فخورا بموقف أحمد عز الدين وباعتزازه بكرامته وحرصه عليها و لم أكن سعيدا بما سمعته عن نوعية علاقته بفاضل الشاهر في القاهرة .

وكان فاضل الشاهر بطبيعته عصبي المزاج تكاد تشعر وأنت تتعامل معه أنه مهزوم من الداخل يعاني من آثار ذلك التهابا في القولون وحدة في المزاج وحين صدر قرار القيادة بإبعاده اختفى على الفور ، لكنني ظللت ألاحقه لأفهم ما جرى حتى قال لي ذات يوم : « أيها الرفيق أنت بعثي وتعرف معنى التعليمات الحزبية ولقاءاتنا الآن معا خطر علينا وهؤلاء الذين يديرون مكتب مصر وأولهم طه يس رمضان لا يفهمون عن مصر شيئا ولا يسعون إلا لاحتواء الإذاعة بشكل كامل رغم أنه ليس بينهم مثقف واحد لكنني أرجوك ألا تقابلني بعد ذلك لمصلحتي ولمصلحتك ربما نلتقي فيما بعد » .

صرت أنا المسئول عن الإذاعة .

استبدلت القيادة بفاضل الشاهر الذي كان ينتمي إلى المكتب الثقافي باصي قفطان وهو من المنتمين إلى مكتب تنظيم مصر وكان المسئول الجديد شخصا متهالكا ضعيف الشخصية محدود الثقافة لهذا شعرت أنني لن أستطيع الاستمرار معه وبعد أسبوعين فقط من بدئه العمل معي في الإذاعة سافر إلى موسكو في رحلة لمدة شهر كانت مقررة من قبل وصدر قرار القيادة بأن أتولى جميع مهام الإذاعة .

أحمد عباس صالح يحتج .

في هذه الأثناء عاد الأستاذ أحمد عباس صالح والتقيت به وشرحت له كل الظروف وكان صديقا حميما لفاضل الشاهر ، وعقد أول اجتماع في حضوري بمكتب تنظيم مصر وتولى مسئول الإعلام عبد الجبار جاسم ترتيب الاجتماع وحضره مع شخص سوري يدعى هيكل غريب وكان من معاونيه وتكلم الأستاذ أحمد عباس صالح منفعلا رغم أنه كان قد أجرى لتوه عملية في القلب بالعاصمة البريطانية ، قال الكاتب المصري موجها كلامه إلى مسئول الإعلام بمكتب مصر : « أنتم

تدعمون عملا مصريا وهذا أمر جيد وفي مرحلة من التاريخ المعاصر كانت مصر تدعم بعثيين لاذوا بها لأسباب سياسية أيضا ولكن هذا لا يمنحكم حق فرض الوصاية علينا . إن باصي قفطان الذي عينتموه ليس مؤهلا لهذا العمل وأنا كرئيس لهذه اللجنة أعترض على هذا القرار » انفض الاجتماع دون نتيجة واستمر الحال على ما هو عليه وبقيت مشرفا ومسئولا عن الإذاعة حتى باصي قفطان من موسكو فمارس عمله معي كمشرف عام ، وقرر مكتب تنظيم مر نقل الإذاعة إلى أحد مكاتب القيادة القومية التي تحوي استديو وأجهزة للعمل الإذاعي .

الحزب يستولي بالكامل على إذاعة صوت مصر .

واستولي حزب البعث على إذاعة صوت مصر العروبة وأدارها وفق منهجه ولأعراضه وكنت بكل أسف أحد أدوات هذا المخطط البعثي وحين أصر الأستاذ أحمد عباس صالح على إضافة الأستاذ أحمد عز الدين إلى لجنة الإعلام أضاف الحزب المخرج المصري إبراهيم عبدالجليل وكان بعثيا حتى تظل أغلبية اللجنة بعثية لكن هذه الإذاعة في كل الظروف أدت دورا ضمن مهام مرحلتها وفي ظروف التصدى لمنهج كامب ديفيد والانفتاح الاقتصادي .

* * *

اعتقال أحمد عز الدين .

اعتبر أحمد عز الدين أن ما حدث يعتبر جريمة في حق مصر وتصور أن بوسعه أن يفعل شيئا وأن يسترد الإذاعة إلى ما كان يعتبره تحالف القوى الوطنية المصرية وراح يتصل بعدد من المثقفين المصريين في بغداد كان بينهم الأستاذ فتحي خليل والأستاذ سعد التائه وسجلت أجهزة الأمن العراقية نص مادار في اجتماع عقدة أحمد عز الدين مع عدد من الصحفيين المصريين في منزل الأستاذ فتحي خليل ورفعت تقريرا إلى القيادة التي كانت تتعامل في أوساط المثقفين المصريين بحرص شديد . لهذا جاء قرار القيادة تحذيريا فقط واعتقل أحمد عز الدين من منزله في غارة همجية حيث

ضرب شقيقه داخل المنزل ضربا مبرحا واقتيد الصحفي المصري الشاب إلى أحد معتقلات البعث واتصلت زوجته السيدة زينب منتصر بالأستاذين أحمد عباس صالح وأمين عز الدين .

كرم مطاوع يحاول الإفراج عنه .

كما لعب الأستاذ كرم مطاوع المخرج المصري المعروف دورا للإفراج عن « عديله » وأدعي أنني رفعت تقريرا إلى القيادة حذرت فيه من آثار قرار الاعتقال هذا على سمعة الحزب في أوساط المثقفين المصريين .

وأفرج عن أحمد عز الدين بعد أسبوعين وفهم جميع الصحفيين والمصريين مغزى هذا الاعتقال باعتباره رسالة موجهة إلى الجميع ليلزموا حدودا معينة مفهومه .

وهكذا تمكن مكتب تنظيم مصر من قيادة العمل في إذاعة صوت مصر العروبة بغير مزيد من المعوقات وفق الأسلوب البعثي المعروف في الإرهاب والقمع .

* * *

الدين في الإذاعة وفقا للتعليمات .

كانت التعليمات الحزبية التي صدرت هى أن يكون توجه الإذاعة العام بعثيا مع الحذر الكامل من الكتاب المصريين الشيوعيين حتى لا يسرفوا أفكارهم وكذلك ملاحظة ألا يكون للإذاعة توجهات دينية إلا في إطار ما يراه الحزب ولقد ظلت الإذاعة كما يذكر مستمعوها تبث دون أن تفتتح كسائر الإذاعات بالقرآن الكريم وظلت لمدة طويلة هكذا وكان الذي أثار في هذه المشكله وطالب بأن تبدأ الإذاعة بالقرآن

---

(1) السيدة زينب منتصر هي شقيقة السيدة سهير المرشدي وزوجة الأستاذ أحمد عز الدين .

الكريم هو محمد عفيفي مطر وقال أيامها إن الشعب المصري متدين بطبيعته ولن يسمع إذاعة لاتبدأ بالقرآن الكريم .

البرامج الموجهة إلى مصر .

ولقد صدرت التوجيهات الحزبية بعد عام من بدء الإذاعة بتقديم برنامج بعثي مباشر ينقل إلى المستمع المصري أفكار الحزب مباشرة ونقلا من موضوعات المنهاج الثقافي والكتيبات البعثية الأخرى كما طالبت هذه التعليمات بضروره أن تبث الإذاعة برنامجا آخر يتحدث عن نضالات حزب البعث وتاريخه ولهذا أعدت دورة إذاعية جديدة وأضيف برنامجان إليها كان الأول بعنوان « مفاهيم قومية » وكان الثاني بعنوان « أيام عربية » كان كل يحاول أن يسرب فكره من خلال ما يكتبه . حاول الناصريون ذلك وأدعي أنني كنت أكتب أساسا ضمن التوجه الناصري وحاول ذلك الشيوعيون أيضا خاصة الأستاذ فتحي خليل وسعد التائه أما الأستاذ عبدالمنعم الغزالي فقد كان حريصا على إرضاء الحزب دائما .

الصراع مع الشيوعيين في الإذاعة .

عندما اغتيل هنري كوريل(*) مؤسس الحركة الشيوعية المصرية نعاه فتحي خليل في إذاعة صوت مصر العروبة وشرح للمستمع تاريخ نضاله وبطبيعة الحال فلقد أحدث هذا الذي أذيع في برنامج « بطاقة مناضل » أزمة عاصفة وعندما أغلقت صحيفة الأهالي بمصادرتها عام 1979 كتب الأستاذ سعد التائه يقارن بين هذه المصادرة وبين إغلاق صحيفة المساء عام 1958 ولم يفهم باصي قفطان خطورة المقارنة إذ إن إغلاق المساء عام 1958 باعتبارها صحيفة الشيوعيين المصرية كان لأنها هاجمت تجربة الوحدة مع سوريا وكان الأستاذ سعد التائه نفسه هو نائب رئيس

---

(1) يهودي عاش في مصر قبل ثورة يوليو 1952 .

تحريرها . وحسب التعليمات الحزبية كان ينبغي أن يرسل لي باصي قفطان المقال لأراجعه لكنه لم يفعل وفي اجتماع لجنة الإعلام هاجمته مستغلا هذه المقارنة التي تسيء إلى حزب البعث بالأساس قبل أن تسيء إلى عبد الناصر وتحمس الأستاذ أحمد عباس صالح معي في الهجوم على جهل باصي قفطان وعدم فهمه لأوضاع مصر وتاريخها وضرورة ألا يتصرف وحده في مراجعة ما ينشر وأبلغه عبد الجبار جاسم أن التعليمات الحزبية تقضي أن أراجع معه كل ما يكتب وأنه مشرف عام يعمل في إطار تذليل الصعاب أمام العمل ويسيطر على الإداريين العراقيين ورجال الأمن ويرى مدى توجه الإذاعه مع توجهات الحزب والثورة في العراق لكن مراجعة المواد هي اختصاص الرفيق المصري ، كما قال عبدالجبار حاسم .

الترويج لجميع الأفكار في إذاعة صوت مصر .

المهم أن كل صاحب فكر كان يحاول أن يستغل هذه الإذاعة للترويج لأفكاره وكان أخطر ما حدث في هذا الصدد هو مافعلته السيدة صافي ناز كاظم .

كان حزب البعث قد أعلن موقفه من الثورة الإيرانية واضحا للكوادر الحزبية بمجرد أن وصلت القوى الشيعية إلى الحكم وأبلغ هذا الموقف للكوادر المتقدمة في الحزب وهو موقف العداء التام لهذه الثورة ولهذا الحكم ولكن الكاتبة المصرية كانت متعاطفة مع هذه الثورة تعاطفا كاملا ومع الذين وصلوا إلى حكم إيران وحاولت أن تستخدم إذاعة صوت مصر العروبة في هذا الاتجاه فأذاعت بعض الموضوعات التي تؤيد الثورة وترحب بحكم آيات الله ثم أقدمت على تسجيل نشيد الثورة الإسلامية الذي كانت تبثه إذاعه طهران وبثته من إذاعة صوت مصر العروبة وحدثت أزمة عاصفة انتهت بإبعاد صافي ناز من الإذاعة أولاً ثم من العراق كلها بعد ذلك حيث اتضح تدينها وتعاطفها مع الإيرانيين الشيعة ونظام آيات الله وكانت حينئذ يدرجة نصير .

وظل حزب البعث هو الوحيد الذي يبث أفكاره وأدبياته صراحة وبشكل منتظم فلهذا أنشئت صوت مصر العروبة !!

المقارنة بين جمال عبدالناصر وصدام حسين .

كان يمكن أن يستغل الكاتب المصري مهارته وأن يستغل في نفس الوقت جهل المسؤولين في مكتب الإعلام بمكتب تنظيم مصر ويمرر ما يريد و لم يكن باصي قفطان غير واحد من أنصاف المثقفين و لم يكن عبدالجبار جاسم أكثر من أمي من وجهة نظري رغم أنه حاصل على بعض المؤهلات الدراسية .

في نهاية عام 1979 نشر صحفى يدعى إبراهيم سلامه في مجلة المستقبل التي تصدر في باريس تحقيقا حول المصريين خارج مصر ضمنه إهانات عديدة وافتراءات وأكاذيب كثيرة وأثار هذا التحقيق غضب الجميع . و لم تكد تمر أيام قليلة حتى نشر وليد أبو ظهر مقالا في مجلة الوطن العربي التي كانت تمول من بغداد عقد فيه مقارنة بين صدام حسين وجمال عبدالناصر وادعى أن القائد البعثي يملك من الإمكانات الأيديولوجية والتنظيمية والمادية ما يمكنه من أن يحقق للأمة العربية ما عجز عبدالناصر عن تحقيقه وركز في مقاله على سلبيات عبدالناصر في محاولة لإثبات وجهة نظره مدفوعة الثمن عن تفوق صدام حسين وتميزه . وبرغم محاذير كثيرة فلقد كتبت تعليقا سياسيا مطولا هاجمت فيه هؤلاء الذين يتطاولون على مصر وعلى قائدها الراحل مركزا بالطبع على تحقيق إبراهيم سلامه .

لكن إبراهيم سلامه لم يكن قد هاجم جمال عبدالناصر !!

صدام حسين يهاجم مصر على الجبهة .

وفي أعقاب اندحار القوات العراقية في منطقة اليسانين الإيرانية ذهب صدام حسين إلى جبهة القتال ليودع قوات جديدة كانت قد ذهبت لاستعادة هذه المنطقة وسميت بقوات المهمات الخاصة وألقى خطابا في توديعهم قال فيه باللهجة العراقية « غيردن شبر تردون تحذوه » ثم قال « غيركم من الجيوش لم يحارب غير ست ساعات وانهزم أو ستة أيام و لم يكمل » وكان واضحا أنه يقصد الجيش المصري وكتبت تعليقا سياسيا يومها تحدثت فيه عن حرب الاستنزاف المجيدة التي أدارها عبدالناصر

على جبهة قناة السويس وعن العبور العظيم الذي حطم أسطورة خط بارليف ، و لم يفهم أحد !!

وأتذكر جيدا أن آخر مقال أذيع لي في هذه الإذاعة كان حول حرية الإنسان العربي وكان ملخصه أن لا مستقبل في هذا الوطن طالما ظل الإنسان العربي مقهورا وأن لا مستقبل له طالما ظل في قبضة الطغاة .

وكما تحديت السفير العراقي في نقابة الصحفيين المصرية(*) أمام حشد من الصحفيين والشباب المصري فإنني أتحدى الآن أن يعثر لى أحد على مقال في صحيفة عراقية أو شيء مما أذعته في صوت مصر العروبة يمجد صدام حسين أو يتحدث عن بطولته المزعومة .

أعترف بأني كنت أشارك في برنامج « مفاهيم قومية » عن أفكار البعث لكنني لم أكتبها أبدا إذ كانت تقرأ مباشرة من المنهاج الثقافي الحزبي والكتب الحزبية الأخرى .

وسوف يغفر الله والتاريخ زلات لأولئك المناضلين الذين سقطوا في أسر الطغاة ذات يوم .

(*) في ندوة عقدت عام 1980 لمناقشة الحرب العراقية الإيرانية بإشراف الأستاذ أحمد حمروش .

التنظيم المصري لحزب البعث

تدرجي في حزب البعث .

أصبحت متفرغا للعمل السياسي والإعلامي أتنقل بين مكتب تنظيم مصر ومكتب الإعلام التابع له والذي أصبح مقرا للإذاعة وكذلك مقر الفرقة العربية الذي يقود العمل الحزبي المصري في العراق وأصبحت نصيرا متقدما بعد ستة شهور من الانتماء للحزب وهي فترة قياسية تستغرق في حالات أخرى عدة أعوام وتعددت لقاءاتي بحسين طعمه وعدنان الكبيسي وعدنان الدهش وغيرهم من المهيمنين على الشئون المصرية في حزب البعث إضافة إلى لقاءات عديدة مع طه يس رمضان عضو القيادة القومية وتيسر لي أن أرى الصورة واضحة ومكبرة وأن أتعرف على كل مخططات الحزب وبشكل خاص ما يتعلق منها بمصر والمصريين وتعرفت على العديدين ممن وقعوا مثلي في فخ البعث واطلعت على ظروف انتمائهم ومدى صدق هذا الانتماء وربما على نواياهم المستقبلية أيضا .

تجنيد الشباب المصريين في الحزب .

قابلت شبانا مصريين دخلوا الحزب بعد أن أقنعوا أن لا سبيل لتعيينهم في المؤسسات العراقية بغير الانتماء وقابلت آخرين جمعتهم أجهزة الأمن بغير مبرر في مراكز توقيفها لعدة أيام ولم يكن من سبيل للخلاص بغير التوقيع على استمارة الانضمام وآخرين تم إقناعهم أن الانتماء سيحقق لهم مزايا عديدة ويمنحهم الأمان وسط بلاد لا أمان لها ولا أمن فيها فلم يتحقق لهم غير مزيد من القلق والخوف .

محاولة تجنيد المرحوم أحمد قدري .

وتابعت فصولا سخيفة لمحاولة تجنيد واحد من علماء مصر وأحد ضباط ثورة يوليو هو الدكتور أحمد قدري رئيس هيئة الآثار المصرية السابق .

كان العالم المصري قد قدم إلى العراق للتدريس في جامعة بغداد مع وعد بمرتب مناسب ومسكن ومزايا أخرى وحين استقر بها اكتشف أن المرتب لن يتجاوز 170 دينارا وهو نصف ما يستحقه فعلا وأن حكاية المسكن والمزايا كانت مجرد وعود كاذبة إضافة إلى العديد من المضايقات الأمنية . ولجأ الدكتور أحمد قدري إلى الأستاذ أحمد عباس صالح ليساعده في إقامة مريحة ومجزية بالعراق وبدأت مساومات مكتب تنظيم مصر مع أحمد قدري بشكل مستفز فهذه بلاد البعث ولا سبيل إلى مرتب مناسب ومسكن مريح ومزايا أخرى بغير الانتماء وظل الرجل صامدا وصابرا فلقد كان هدفه من الاغتراب كما قال لي هو تجهيز ابنته التي تستعد للزواج وحين اشتدت عليه الضغوط اختفى من العراقي وظهر في القاهرة رئيسا لهيئة الآثار المصرية وكان قد أكد لى أن منصور حسن وزير الثقافة المصري أيامها عرض عليه الموقع قبل سفره لكنه رفض لظروف التطبيع مع إسرائيل .

أستاذ جامعي مصري يجند في الحزب .

وقابلت أستاذا جامعيا مصريا استدعي إلى مقر المخابرات العامة واتهم بترويج أفكار ماركسية داخل الجامعة وحين بدأ يدافع عن نفسه ويثبت أن لا علاقة له بالماركسية من قريب أو بعيد أفهموه أن لا دليل على صدق ما يدعيه إلا أن يوقع استمارة انتماء إلى حزب البعث فوقعها . قال لي هذا الأستاذ الجامعي في لقاء طويل بعد أن أصبحت مسئوله الحزبي « هل يمكن أن يكون الأسير مناضلا . إنني أعتبر نفسي أسيرا رغم أنني لم أحارب أبدا » .

لكن ذلك كله لم يمنع مكتب تنظيم مصر من أن يعرب عن سعادته دائما لأن حجم التنظيم في ازدياد مستمر وأن الزيادة على امتداد محافظات العراق تتجاوز الألف

في كل شهر وأن يرفع تقريرا دوريا بهذه الزيادة إلى الرفيق طه يس رمضان .

وأصدر طه يس رمضان قرارا في منتصف عام 1978 بأن يتم تعيين المصريين في العراق عن طريق مكتب تنظيم مصر وبقرارات جماعية توقع منه على أن يتم ما بين تقديم طلب التعيين وتوقيع القرار كسب طالب التعيين حزبيا وهكذا تصور أنه يسهل مهمة الكسب الحزبي متناسيا أن النضال السياسي لهدف خاص ليس نضالا وأن الذي أجبر على شيء يرفضه في أول فرصة تسنح له .

المخابرات العراقية تشرف على مكتب تنظيم مصر .

لكن مهام التجنيد الحزبي كانت تمضي على قدم وساق والاجتماعات الحزبية تنعقد وتنفض والتقارير الأمنية تنهال على عدنان الكبيسي فيحولها إلى ثامر الجبوري وهو ضابط المخابرات الذي ألحق على التنظيم لأغراض المتابعة الأمنية فلا يكاد يمر يوم إلا ويعتقل الجبوري مصريا ويمارس عليه هوايته في التعذيب البشع وكان طه يس رمضان سعيدا يرى أن القبضة الحديدية التي يمسك بها عدنان الكبيسي وثامر الجبوري التنظيم المصري هي صمام الأمان حتى لا ينفلت التنظيم فلقد أفهموه أن المصريين متمردون بطبيعتهم .

المفترض أن البعثي لا يجوز له أن ينادي بعثيا آخر باسمه الحركي دون أن يسبقه بكلمه رفيق والمفترض كذلك أن موضوعات المنهاج الثقافي تركز على ما تسميه الروح الرفاقية وعلى أن من لا يحب رفيقه ليس بعثيا .

أنت رفيقي فانت عدوى .

لكن أي بعثي يعرف أنه لن يعتقل إلا بتقرير من رفيقه ولن يعدم إلا بوشاية رفاقية وأن اغتياله قد يكون تكليفا حزبيا لهذا الرفيق . لهذا فإن الحقيقة الواضحة هي مالخصها بعثي مصري يعمل حاليا في إدارة جامعة الزقازيق في رسالة بعث بها من مصر بعد هروبه إليها جاء فيها بالحرف الواحد « عندما تصبح رفيقي تصبح قلقي

وهمي الوحيد . تصبح عدوي » .

والعلاقة بين البعثي ومسئوله هي علاقة مع دكتاتور صغير فكل ما ينطق به هذا المسئول هو تعليمات وأوامر حزبية لايجوز مناقشتها فالمبدأ الحزبي نفذ ثم ناقش منقوش على جدران المقرات الحزبية . ومن الممكن أن يكون المسئول الحزبي مجرد جاهل لاقيمة له رقي لنفاقه وانتهازيته ويكون بين عناصر خليته مثقف مصري معروف أو أستاذ جامعي ويكفي أن عدنان الكبيسي مسئول التنظيم كله هو مدرس ابتدائي في الأصل لا يعرف شيئا غير المكتوب في أجزاء المنهاج الثقافي الثلاثة ويكفي أن عبدالجبار جاسم مسؤل الإعلام في مكتب مصر كان يتعثر في فهم مضمون مقال في صحيفة فيطلب من يشرحه له مدعيا الإرهاق وضيق الوقت .

المهم لدى هؤلاء أن عدد الخلايا الحزبية كان في ازدياد وأن عدد الأنفار فيها كان في نمو وأن الاجتماعات تعقد في مواعيدها المحددة .

بعثيون يعادون الاشتراكية .

كنت ألتقي ببعثيين مصريين يعادون الاشتراكية أصلا ويعتبرونها حجرا على حرية الإنسان وقتلا لطموحه ولم يكونوا يعرفون أن الحزب يرفع راية الاشتراكية وكنت أسمع من بعضهم أن الوحدة العربية فكرة مثالية وغير واقعية رغم أنهم يرددون شعار الحزب في كل اجتماع وظل الدكتور أحمد عارف كلما التقى بي يذكرني بأنه في الأساس وفدي النزعة والفكر . كان التجانس مفتقدا لأن موردي الأنفار يعملون دون ضوابط وكان الحماس مفقودا لأن القطيع لا يتحمس لشيء وكان النضال البعثي مجرد شعار لأن الأسرى لا يناضلون .

* * *

أسرار تنظيم البعث المصري .

في يوليو 1978 ذهبت إلى حسين طعمة مهنئا بعيد الثورة وهنأني هو الآخر بالترقية إلى درجة مرشح للعضوية وقال لي « الآن أعطيك ملفين لتطلع عليهما لترى ماذا انجزنا في النضال من أجل مصر » وأطلعت بسرعة فإذا بهما سرد لتاريخ التنظيم المصري لحزب البعث يفيد أن مصر استقبلت في بداية الخمسينيات عناصر بعثية سورية روجت لأفكار الحزب بين المثقفين المصريين وأن تنظيما تشكل حنيئذ ضم أكثر من ثلاثين عضوا كان بينهم الدكتور يحيى الجمل والأستاذ أحمد بهاء الدين والأستاذ محمد أحمد خلف الله والشاعر أحمد عبدالمعطي حجازي والمحامي الناصري المعروف عصمت سيف الدولة وأن هؤلاء رفضوا حل تنظيمهم حين وافق الحزب في سوريا على حل نفسه تنفيذا لشروط عبدالناصر لإتمام الوحدة عام 1958 لكن هؤلاء تركوا الحزب بعد ذلك عندما أيد الحزب الانفصال وباركه عام 1961 وتفيد الملفات الأخرى أن الحزب قد جند في السبعينيات وحتى يوليو 1978 أكثر من عشرة آلاف مصري داخل العراق وأكثر من ألف في دول العالم المختلفة وأكثر من مائة داخل مصر نفسها .

لكن المقارنة على أية حال كانت لغير صالح حسين طعمة ومكتبه ذلك أن ثلاثين عضوا في تنظيم دخلوا بإرادتهم واقتنعوا به بعقولهم رفضوا حل تنظيمهم رغم قرار الحزب لكن عشرات الألوف من الأسرى انتموا خوفا من سيف الإرهاب أو طمعا في ذهب البعث لايمكن أن يمثلوا شيئا .

شروط الترقي في الحزب : التجسس والقسوة وترك الدين .

إن الترقي في صفوف حزب البعث هو مثال آخر من أمثلة هذا التخبط العقائدي والفكري ذلك أن أهم أسسه تتلخص في الكسب الحزبي والتقارير الأمنية والالتزام بالتعليمات وما يسمى بتجاوز الموروثات لهذا فإن الذي يرقى هو القادر على ممارسة أساليب القهر ووسائل النصب الأخرى لإدخال أكبر عدد إلى صفوف

الحزب وبغض النظر عن نوعياتهم وهو الأكثر مهارة في التجسس على رفاقه وعلى الناس والوشاية بهم في تقارير حزبية وهو الذي ألغي فكره وعقله وتحول إلى ترس في آلة البعث ينفذ التعليمات بغير تردد والآوامر بغير مناقشة وهو الذي أجاد تمثيل دور التقدمي كما يراه البعث بغير قيم وبغير دين وبغير أخلاق .

إن الشاعر المصري محمد عفيفى مطر ظل في درجات المؤيد والنصير لعدة سنوات لأنه حسب تقارير مسئوله عنه له ميول دينية وزوجته متدينة ولايكتب تقارير أمنية والكاتبة المصرية صافي ناز كاظم ظلت هي الأخرى في هذه الدرجات الحزبية المتواضعة إلى أن فصلت لأنها تصلي بانتظام وتردد أفكارا دينية تتناقض مع علمية الحزب وعلمانيته . ولم يصدق الصحفي المصري سعد زغلول فؤاد نفسه ، حين وجد نفسه في العاصمة الفرنسية قادرا على أن يكسب لقمة عيشه وودع البعث إلى غير رجعة .

لقد كنت مسئولا عن أكثر من خمسمائة بعثي مصري أعرفهم ويعرفونني أقابل بعضهم الآن فيلعنون الأيام السوداء والسنوات الكئيبة التي أوقعتهم في فخ البعث .

لهذا يتعثر التنظيم المصري الآن ولست أعرف إن كان مكتب تنظيم مصر قد تحول إلى سوبر ماركت أم أنه لا يزال يقود النضال البعثي في جزر الفوكلاند !!

* * *

التقدم نحو القيادة القطرية .

في أول « آب » أغسطس استدعاني عدنان الكبيسي وأبلغني أنني وقد أصبحت مرشحا للعضوية فلقد أصبحت مسئولا عن التنظيم في شارع الرشيد وسيعمل معي عدد من الأنصار المتقدمين العراقيين والمصريين وسيكون مسكني مقرا لاجتماعات التنظيم وقيادته وأبلغني أنني سأدير اجتماعات ثلاث خلايا من الأنصار المتقدمين المصريين

والعراقيين وسيدير الأنصار المتقدمون العراقيون اجتماعات الأنصار المصريين تحت إشرافي ومسئوليتي وسيدير الأنصار المتقدمون المصريون اجتماعات المؤيدين المصريين تحت إشرافي ومسئوليتي أيضا وأنني في ذات الوقت سأكون أحد عناصر خلية جديدة تعقد اجتماعاتها في مقر الغرفة العربية تحت مسئولية الرفيق عبدالرحيم محمد .

التعليمات الجديدة للقادة .

وأطلعني على مجموعة التعليمات التي يطلع عليها البعثي حين يصبح مسئولا عن منظمات :

أولا ـــ الانضباط والالتزام في مواعيد الاجتماعات وطريقتها وأصولها وبموضوعات المنهاج الثقافي المقرر وبموقف الحزب في مناقشة القضايا المختلفة .

ثانيا ـــ التنسيق الأمني مع الجهات الأمنية لفرض الرقابة اللازمة على عناصر الحزب وذلك بإبلاغ التقرير الأمني العام دوريا إلى ثامر الجبوري ضابط المخابرات المكلف داخل التنظيم المصري ،

ثالثا ـــ توجيه العناصر الحزبية باستمرار ودفعها إلى تخطي الموروثات المتخلفة في المجتمع العربي والتأكيد على علمية الحزب وعلمانيته وتخطيه للظاهرة الدينية ومفاهيمها وطقوسها وملاحظة العناصر في مدى اقترابهم من عقيدة الحزب وابتعادهم عن العقائد الأخري .

رابعا ـــ زيادة حصيلة الكسب الحزبي والتركيز عليها في كل اجتماع وإعداد كشوف الأصدقاء وإرسالها للجهات الأمنية بانتظام وملاحظة الذين تقدموا بطلبات التعيين إلى الحزبيين والمؤسسات الحزبية لكسبهم قبل صدور قرار الرفيق المسئول بتعيينهم .

خامسا ـــ تقديم المساعدة للجهات الأمنية فيما يتصل بغير المصريين وذلك بتكليف الحزبين بمتابعتهم ورفع التقارير اللازمة .

وحين هممت بالانصراف قال عدنان الكبيسي بلهجة متعالية متغطرسة

معادية « أرجو أن تثقف البعثيين بفكر الحزب وليس بفكر جمال عبدالناصر » وبينما كنت أغادر مكتبه قال بصوت مرتفع « سأزورك في الاجتماعات بنفسي تذكر دائما » .

وحين بدأت العمل في إطار المهمة الجديدة تكشفت لي النوعيات والأهداف والممارسات والسلوكيات ، ومع الوقت أدركت أن العناصر العراقية التي تعمل معي هي في الأصل عناصر من المخابرات العامة يتبعون ثامر الجبوري ويعملون معه لكن عبدالرحيم محمد الذي أصبحت ضمن مسئوليته كان شخصية عراقية فريدة فمن الصعب أن تقابل عراقيا يميل إلى المرح والفكاهة ويتعامل بغير تعقيدات ووجه مقطب ويبدو أنه لفرط ما عاناه في عمله الحزبي أصبح لا يعاني شيئا !!

في شارع الرشيد .

كان شارع الرشيد هو الشارع العراقي الذي أصبح مصريا بسكانه وملامحه ففي مقابل كل عشرة مصريين في هذا الشارع يوجد عراقي واحد وفي مقابل عشرة مطاعم للفول والطعمية يوجد مطعم واحد يبيع « التكة » العراقية ويتندر المصريون عادة بأن العراقيين الذين يدخلون شارع الرشيد يحصلون في البداية على تأشيرة دخول لهذا كان حجم التنظيم في هذا الشارع كبيرا والنوعيات متباينة والحكايات كثيرة وطريفة ومسلية .

حكاية علي المصري .

« علي » شاب مصري أنيق من القاهرة ويعمل موظفا في وزارة العمل العراقية أصبح في درجة نصير . منتظم في الاجتماعات مجد في الكسب الحزبي وكتابة التقارير وطلبات تعيين المصريين . فجأة يتقدم بتقرير إلى الحزب يلتمس الموافقة على زواجه من زميلته العراقية وافق الحزب وبعد أسبوع واحد من الزواج اعتقله ثامر الجبوري !!

كان « علي » قد أقام حفل زواجه في فندق فاخر وأقام فيه لمدة أسبوع وهو مالفت نظر مسئوله الحزبي فمن أين له بتكاليف الفرح والإقامة الفاخرة خاصة أن المصريين يوجدون في العراق للادخار وليس للإنفاق بهذا البذخ وتبين بالتحري أن

سيادته يبتز المصريين ويحصل من كل مصري في الفندق الذي يقيم فيه على مقابل لمساعدته في التعيين ومقابل لحمايته أمنيا وعدم كتابة تقارير تؤذيه لهذا دخل الحزب أو هكذا ينبغي أن يستفيد مادام أصبح بعثيا .

زوجة عبدالمجيد تبلغ عنه .

« عبدالمجيد الشالي وأخوه عبدالله » قدما من مصر منذ زمن طويل وافتتحا مقهى في شارع الرشيد وتعرضا لمشاكل عديدة مع أجهزة الأمن العراقية فلاذا بالحزب وبدا لهما أن شارع الرشيد قد أصبح ضمن ملكيتهما الخاصة فعاثا فيه فسادا وضاعفا أسعار المشروبات وأقاما العديد من العلاقات النسائية واعتقلا معا في ليلة واحدة !!

كانت زوجة عبدالمجيد هي الأخرى بعثية وكان يسيء معاملتها رغم أنها ابنة عمه ونما إلى علمها أن له علاقات نسائية عديدة وأنه ينوى الزواج من عراقية ورفعت تقريرا أمنيا إلى مسئولها تخلي فيه مسئوليتها لأن زوجها وشقيقه يراسلان جهات الأمن المصرية وقدمت دليلا على ذلك خطابا كتبه شقيق زوجها إلى ضابط شرطة مصري برتبة رائد وبعد شهر من الاعتقال والتعذيب أثبتا أن الرائد هو ابن خالهما وخرجا دون أن يعلما شيئا عن كاتبة التقرير التي كانت قد عادت إلى مصر وأنقذت نفسها من مصير مظلم .

العبث بالأعراض .

نصيرة مصرية زوجة لنصير مصري ألحقت بمنظمة نصير متقدم عراقي فاستدعاها وحدها وحاول أن يقيم معها علاقة غير مشروعة فرفعت تقريرا بالواقعة ورفعته بنفسي للحزب ليعود مره أخرى مع تأشيرة طريفة لعدنان الكبيسي بأنه لا شأن للحزب بالعلاقات الخاصة !! ولكن المسئول العراقي تمكن بعد ستة شهور من إيجاد مبررات لاعتقال السيدة وزوجها ويبدو أن السيدة قد استسلمت في النهاية !!

المخادع مصيره الإعدام

نصير متقدم عراقي ظل يرفع تقارير أمنية أضرت بالعديد من العراقيين .

ثم تبين أن النصير المتقدم عبدالسادة كاظم عضو في حزب الدعوة المناهض لحزب البعث وأن كل تقاريره كانت كاذبة وضمن توجيهات حزب الدعوة وأعدم مع مجموعة من عناصر الشيعة في يونيو عام 1979 .

المصلون يزيدون في المساجد .

نصير متقدم عراقي كتب تقريرا أمنيا لاحظ فيه زيادة عدد المترددين على المساجد في حي الثورة ببغداد وأنه لاحظ أن المسجد المجاور لمنزله يضم عشرة مصلين دفعة واحدة وأنه يرى ضرورة أن يعمل الحزب على تحجيم هذه الظاهرة تنفيذا لتوصيات المؤتمرات القطرية .

الصائم يفصل من الحزب .

نصير مصري رفع تقريرا يسأل فيه عن سبب عدم تغيير مواعيد الاجتماعات في شهر رمضان لتناسب ظروف الصيام خاصة أن اجتماعه في موعد آذان المغرب بالضبط وأشر عدنان الكبيسي لمتابعته لمدة ثلاثة شهور وفصله إذا ثبت تمسكه بهذه الأفكار المتخلفة .

وشى بأخيه ولكنه أعدم .

حكايات عديدة لكنني لا أنسى منها ما حييت حكاية واحدة .

سلمني مسئول عراقي تقارير منظمته وبينها تقرير منه شخصيا يبلغ فيه أن شقيقه متعاطف مع حزب الدعوة وأنه يشك في انتمائه إلى هذا الحزب ويخلي مسئوليته في حالة ثبوت ذلك . وسيطرت علي الرغبة في عدم رفع هذا التقرير حتى لا يعدم رجل لمجرد انتمائه إلى حزب آخر ولكن الذي حدث أن البعثي وشقيقه قد أعدما في عام 1979 ، الأول لأنه لم يبلغ والثاني لأنه يناهض الحزب واستدعيت إلى

مقر المخابرات العامة للاستفسار عن صحة أقوال البعثي الذي يدعي أنه رفع تقريرا ونفيت أقواله .. !! لم يكن هناك من حل غير الإنكار فلست مسئولا عن كونهم بهذا الانحدار وهذه الوحشية . هكذا أقنعت نفسى .

* * *

البناء الهرمي لتنظيم مصر .

يمكن رؤية التسلسل القيادي والنظام العام والمهام الموكولة لكل مستوى فيما يتعلق بالبناء الهرمي التنظيمي الخاص بمصر داخل القيادة القومية على الترتيب التالي :

أولا ــ المشرف العام على مكتب تنظيم مصر وهو طه يس رمضان عضو القيادة القومية وهو المسئول أمام القيادة القومية عن كل ما يتعلق بمصر من تنظيم وإعلام وعلاقات بمختلف القوى السياسية والشخصيات العامة فيها وهو المسئول الأول والأخير عن تنفيذ مخطط البعث لتصدير الفكر والعناصر التي تحقق هدف الحزب في إحداث الانقلاب الثوري وتسلم السلطة في مصر كهدف نهائي .

ثانيا ــ رئيس مكتب مصر وتولى هذا الموقع على التوالي حتى الآن حسين طعمة وعدنان الكبيسي وعلى الفراش وهو المسئول عن مباشرة التنفيذ الفعلي لتوجيهات القيادة التي يصدرها طه يس رمضان في تعليمات مكتوبة ويتبعه لتحقيق ذلك :

1 ــ أمين التنظيم وهو المسئول عن تكوين تنظيم بعثي مصري قوي وقادر على تحقيق هدف الحزب في الوصول إلى السلطة في مصر ويتبعه لهذا الغرض مسئولون حزبيون في العراق وفي كل دول العالم وأحد موظفي السفارة العراقية في مصر ويتبع كل مسئول من هؤلاء عدة منظمات حزبية تقود عناصرها العملية

التنظمية بحيث يأخذ التنظيم شكلا هرميا وشكلا خيطيا في وقت واحد وأن يراعي هذا التنظيم احتياطات الأمن فلا يعرف مسئول إلا المنظمات التابعة له دون غيرها من المنظمات التابعة لغيره وأن يحمل كل عنصر اسما حركيا ولا يجوز أن يكشف اسمه الحقيقي وأن يخفي العنصر البعثي المصري حقيقة انتمائه إلى الحزب دائما ، ويراقبه في ذلك مسئول أمنى كما يتعاون لهذا الغرض مع كل الجهات الأمنية الأخرى .

2 ـــ مسئول الإعلام وهو المسئول عن الإعلام الموجه إلى مصر وإلى المصريين في أي مكان وعن متابعة توجهات الإعلام المصري في الداخل وعن تجنيد المثقفين المصريين لصالح الحزب إعلاميا وتنظيميا كلما أمكن .

3 ـــ مسئول العلاقات العامة وهو المسئول عن توثيق علاقات الحزب في هذه المرحلة بجميع القوى السياسية المصرية داخل مصر وخارجها وكذلك الشخصيات العامة المصرية ويعمل على الاستفادة منها ضمن أهداف الحزب على أن يكون مفهوما له أن هذه العلاقات تكتيكية حتى يتمكن التنظيم المصري من ملء الفراغ السياسي على الساحة المصرية !!

وكان مسئول التنظيم هو عدنان الكبيسي ثم رافع الكبيسي وكان مسئول الإعلام هو عبد الجبار جاسم وكان مسئول العلاقات العامة هو عدنان الدهش ومع هؤلاء جميعا يوجد مكتب الأمن ووظيفته الأساسية أمن مقر المكتب وتلقي التقارير الأمنية وإبلاغ الجهات الأمنية المختلفة بما يخصها من هذه التقارير .

ويتبع مكتب تنظيم مصر عدة مقرات للتنظيم هي مقار الفرقة العربية ومكتب واحد للإعلام الذي أصبح مقرا لإذاعة صوت مصر العروبة على ألا يوجد به من غير الحزبيين سوى الأستاذ أحمد عباس صالح ولا يتبعه مقرات بالمحافظات والدول الأخرى إذ يتعامل التنظيم المصري داخل مقرات التنظيم العراقي ولكن بشكل مستقل .

لا يجوز أن تتصل بأحد غير المسئول .

ولايجوز بحال من الأحوال أن يتصل بعثي بمسئول حزبي سوى مسئوله إلا

بناء على استدعاء أو بناء على طلبه وبعد موافقة الحزب وتسمى هذه الاتصالات غير المشروعة اتصالات جانبية يعاقب مرتكبها بعد التحقيق معه وفي حالة الاتصال بمسئول آخر بشكل مشروع تستعمل كلمة للسر حتى يتعرف كل منهما على الآخر ويجوز للمسئول الحزبي أن يفاجيء اجتماع منظمة حزبية تتبعه ولكنه لا يجوز له مفاجأة منظمة لا تتبعه مهما كان مستواه الحزبي .

تحية رفاقية ودمتم للنضال .

والشكل العام للعلاقات التنظيمة يأخذ في العادة شكلا شبه عسكري من حيث الانضباط وتنفيذ الأوامر دون حق مناقشتها والتسلسل القيادي كما تتولى العناصر الحزبية من درجات معينة مهام « النوبتجية » والحراسة على المقرات الحزبية عدا أن كل بعثي ينادي الآخر بكلمة رفيق بغض النظر عن اختلاف درجاتهم الحزبية وتكتب التقارير الحزبية بأسلوب واحد إذ تبدأ بعبارة تحية رفاقية وتنتهي بعبارة ودمتم للنضال ويوقعها البعثي باسمه الحركي ودرجته الحزبية التي يتبعها ويكتب في جانب من أعلاه شعار الحزب ولايجوز أبدا أن يكتب بسم الله الرحمن الرحيم ويعتبر من يقدم على ذلك مخالفا .

* * *

التثقيف الحزبي .

ويتم التثقيف الحزبي وفق منهج معين على الطريقة المدرسية إذ تحدد لكل درجة حزبية موضوعات معينة من المنهاج الثقافي بأجزائه الثلاثة . ويطلب إلى الحزبيين الاطلاع على أدبيات الحزب الأخرى بشكل حر واختياري على أن يتولى المسئول الحزبي متابعة مدى استيعاب عناصر منظمته للموضوعات الثقافية المقررة ويكتب البعثي عادة في كل فترة تقريرا ثقافيا يضمنه رؤيته لبعض الموضوعات الثقافية المقررة

عليه .

ويتناول المنهاج الثقافي عادة موضوعات مختلفة تتناول قضايا الوحدة العربية والاشتراكية العلمية وقضايا الحرية وتتناول ما يسمى بنضال الحزب في هذه الاتجاهات وتاريخه ونشأته وإنجازات ثورة الحزب في العراق وتحدد بعض الموضوعات الأخرى سلوكيات البعثي وأساليب النضال المختلفة ووسائله وكل هذه الموضوعات مأخوذة أساسا عن محاضرات وخطب قادة الحزب في المناسبات المختلفة وعن مؤلفاتهم التي صدرت في كتيبات من قبل مع التركيز على ما صدر في هذا المجال عن ميشيل عفلق ومنيف الرزاز وشبلي العيسمي وصدام حسين وإلياح فرح .

عند إعدام **عضو قيادي تعدم مؤلفاته .**

وحين يصدر قرار بإعدام قيادة حزبية يصدر في ذات الوقت قرار بإعدام مؤلفاته وتشطب الموضوعات التي تناولت فكره من المنهاج الثقافي وهو ما حدث لمؤلفات منيف الرزاز وغانم عبدالخليل وعبدالخالق السامرائي وعدنان الحمداني .

الفكر البعثي وجذوره .

ويعتبر فكر الحزب وثقافته خليطا من الفكر القومي الذي شاع في بدايات هذا القرن خاصة في سوريا على يد مجموعة مفكرين يجيء في مقدمتهم زكى الأرسوزى والفكر الماركسي الذي تتلمذ في مدارسه ميشيل عفلق ومنيف الرزاز ومؤسسو الحزب الآخرون ولا يختلف هذا الخليط الفكري كثيرا عن الأفكار التي سادت مصر إبان المرحله الناصرية . ولكن الفكر البعثي يقع في عده إشكاليات أهمها :

هو ضد الدين .

أولا : أن الفكر البعثي قاطع الدلالة في المسألة الدينية محدد بشكل كامل

فيما يتداول سراً من أدبيات وهو فكر يناهض صراحة ما يسميه بالظاهرة الدينية غير أنه في الكتيبات المعلنة والمحاضرات والخطب يظل مترددا بين التصريح والتعتيم ويتم التثقيف البعثي عادة من خلال المنهاج الثقافي على أساس احتواء الجانب الديني وتخطي الظاهرة الدينية ولكن بأساليب ملتوية كما فعل ميشيل عفلق في محاضرته التي نشرت بعنوان ذكرى الرسول العربي إذ تحدث عن محمد « ﷺ » باعتباره باعثا للأمة وقائدا ملهما ورسولا للنهوض العربي دون تحديد مفهومه لهذا كله لكن الموضوع ذاته يدرس للبعثيين على أساس رفض المفاهيم غير العلمية كالوحي والغيب والقدر وبينما يتحدث صدام حسين عن الرسالة الإسلامية باعتبارها رساله إنسانية عظيمة فإنه يرى في أماكن أخرى من صفحات كتابه عن الدين والتراث وكتابه حول كتابة التاريخ ضرورة تجاوز الظاهرة الدينية وأن البعثيين ملزمون باختيار العقيدة البعثية دون أيه عقائد أخرى .

هو ضد الحرية .

ثانيا : فيما يتعلق بهدف الحرية فإن كل موضوعات المنهاج الثقافي تتحدث عن جانب واحد منها وهو التحرر من الاستعمار وأشكال التبعية والنفوذ الأجنبي بمعنى حرية الوطن لكنه لا يعالج أبدا بشكل مقنع قضية الحرية والديمقراطية بمعنى حرية الفرد وديمقراطية نظام الحكم ، وهو يقفز على هذه المفاهيم مركزا على جوانب محددة منها كحرية المرأة وحرية المعتقدات الدينية مع التركيز بشكل مستمر على مثالب الديمقراطية في المجتمعات الغربية .

اشتراكية غامضة .

ثالثا : لا يستطيع الفكر البعثي أن يحدد أوجها للخلاف بين اشتراكيته والاشتراكيات الشيوعية إلا بأن يتحدث عن خصوصية الواقع العربي وبأن يسمي الاشتراكية في المنهج البعثي اشتراكية عربية دون تحديد أوجه الخلاف بين هذه الاشتراكية وبين الاشتراكية العلمية في الفكر الماركسي .

وعلى أية حال فبرغم أية ملاحظات على الفكر البعثي كما هو مدون على الورق فـإن المأساة ليست في هذا الفكر والمشكلة ليست في تلك الأدبيات إنما تنحصر الكارثة في الممارسات التي هي بكل تأكيد تتناقض تناقضا كاملا مع الفكر والأدبيات والشعارات والأهداف المعلنة .

* * *

الكلام الأجوف والشعارات .

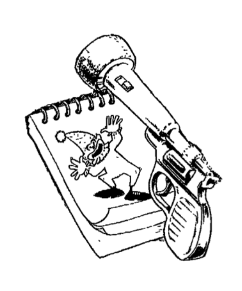
ما إن تطأ قدماك أرض العراق حتى تلازم عينيك أينما ذهبت شعارات البعث وأطروحاته وأمه عربية واحدة ذات رسالة خالدة . وحدة . حرية . اشتراكية فلسطين قضيتنا المركزية ، وغير ذلك من شعارات براقة وبين وقت وآخر تخرج التظاهرات الشعبية المنظمة تهدر في الشوارع والميادين تردد ذات الشعارات بحماس بالغ ولا يساورك شك في أنك قد وصلت إلى معقل الثورة العربية وأن الوحدة العربية قد أصبحت قاب قوسين أو أدنى وأن فلسطين قد أصبحت على مرمى البصر وستمر على المكتبات المنتشرة بكثرة وستجد الكتب رخيصة الثمن فإذا قرأتها فسوف تقترب أكثر من الأهداف العربية التي بدت من قبل وكأنها السراب وهكذا ستسمع الإذاعات وتشاهد التليفزيون العراقي كلها تهتف وتناضل لتقريب يوم الوحدة وتحرير فلسطين وكلها تحقق النصر كل يوم على الإمبريالية الأمريكية والصهيونية العالمية .

الفصام بين الواقع والكلام .

وما إن تستقر هناك وتتابع ما يجري وتدقق النظر فيما يحدث حولك وتسترجع التاريخ والأحداث حتى تصطدم بالحقائق المرة والواقع المؤلم لأن الممارسات نقيض الفكر والشعارات وسوف ترى أن هؤلاء الذين يرفعون شعار الوحدة هم الذين يناضلون لتمزيق الأمة وأن رسالتهم الخالدة هي القهر والإرهاب والاغتصاب وأن

الحرية لديهم هي حريتهم في العدوان بغير مبرر والإعدام بغير تهمة والاعتقال لمجرد الشبهة وأن الاشتراكية تعني أن يشترك البعثيون في تقسيم ثروة العراق بينهم أو إهدارها لأهدافهم وسوف تكتشف أن هؤلاء خبراء في تضليل الجماهير وفي قلب الحقائق وتزييفها .

هكذا رأيتهم هناك وتثبت من حقيقتهم .



جرائم من كل نوع

راجحة حضير وسم الثاليوم

حين تسلمت العمل في إذاعة صوت مصر العروبة كانت مذيعتان عراقيتان ضمن طاقم العمل بها إحداهما هي ذكية العطار والأخرى هي راجحة حضير وكانتا تتناوبان العمل يوما بعد يوم وتتميزان بجمال شاهق قال عنهما فاضل الشاهر إنهما أفضل ما خلف وراءه أحمد عز الدين من ذكريات . لكن راجحة على وجه التحديد كانت أشهر جميلة عراقية بوجه عام وجميلة مذيعات التليفزيون العراقي بغير منازع . كانت بعشية بدرجه نصير وزوجة لممثل عراقي نصف مشهور وأما لطفل يدعى مهران . وبعد نحو ستة شهور اختفت راجحة من الإذاعة والتليفزيون وأبلغني ضابط المخابرات العراقي أنه قد تم اعتقالها وأجبر زوجها على تطليقها وأطلق سراحها بعد ثلاثة شهور وعادت إلى أسرتها .

كانت هيئة الإذاعة البريطانية قد ركزت في نشرات أخبارها حينئذ على أن عراقيين تمكنوا من الهرب بعد خروجهم من المعتقلات يعالجون في مستشفيات لندن من آثار نوع من السم يسمى الثاليوم تجرعوه لدى خروجهم من المعتقلات في أكواب من الحليب وأن هؤلاء يموتون واحدا بعد آخر وبعد أعراض بينها التهابات جلدية وتقيحات وتهيج وسقوط الشعر والتهاب القصبات الهوائية والرئتين .

وتابعت بنفسي مع ذكية العطار رغم المحاذير حالة راجحة إلى أن ماتت بعد ثلاثة شهور من خروجها من المعتقل وتأكد لي أن ما أذاعته لندن كان صحيحا وأن راجحة قد مرت بكل الأعراض التي مر بها هؤلاء الذين كانوا يعالجون في مستشفيات العاصمة البريطانية .

وعلى مائدة عشاء مع ثامر الجبورى فاجأني سائلا « تريد أن تعرف لماذا

اعتقلت راجحة ؟ وكيف ماتت ؟ سمعت أنك زرتها على أية حال أنت رفيقنا ويمكن أن أصارحك » .

إدعى الجبوري أن راجحة كانت على علاقة بأحد عناصر الحزب الشيوعي العراقي وأنها نقلت له أسرارا حزبية مهمة وأكد الجبوري في براءة غريبة أنه لا ينبغي للبعثي أن يخون وحين يخون يجب أن يقتل ومضى الجبوري وكأنه يحادث نفسه أو كأنه يوجه لي تهديدات مباشرة فقال « بعد أن يمر أي أحد بتجربة الاعتقال عندنا يصبح معاديا بالضرورة ولا أمل منه بعد ذلك للحزب أو للثورة ، فلماذا نترك بين صفوفنا ألغامًا موقوتة » ولم يكن ما قاله ثامر الجبوري صحيحا فلم يحدث أن أحبت راجحة شيوعيا ولم يحدث أن نقلت أسرارا حزبية لأحد ، ذلك أن النصير الحزبي لايملك أسرارا هامة أو نصف هامة ولم تكن راجحة مهتمة في الأصل بأية أنشطة سياسية أو أية أيديولوجيات ولم توقع استمارة الانتماء لحزب البعث إلا لأن ذلك هو أحد شروط التعيين في مؤسسة الإذاعة والتليفزيون وفي أي مؤسسة عراقية هامة هذا بالإضافة إلى أن الشيوعيين العراقيين كانوا مطاردين داخل العراق وخارجه معرضين لأقسى عمليات التنكيل والإرهاب ولا وقت لديهم للحب والعلاقات النسائية .

كانت راجحة حضير رائعة الجمال كما قلت ولهذا السبب عينت مذيعة بالتليفزيون رغم أنها من حيث النواحي الموضوعية كانت لا تصلح لضعفها في اللغة العربية وعدم قدرتها على النطق السليم هذا ما يعرفه كل العراقيين . وكانت راجحة اجتماعية أكثر مما ينبغي متساهلة أكثر مما يليق لكنها أبلغتني ذات يوم أنها زوجة لرجل تحبه وأم لطفل تعبده ــ كما عبرت ــ وأنها لو أرادت أن تكون سيئة السمعة لقبلت عروضا عديدة للعمل في السينما العراقية الناشئة ولاستجابت لأياد كثيرة ممتدة بعضها لكبار الرءوس في هذا البلد ، هكذا قالت .

كنت معها ذات يوم في غرفة ملحقة باستديو الإذاعة وكان بيننا حديث طويل أنهته واقفة وهي تقول « إن أكبر الرءوس في العراق تتمناني » .

ومضت بسرعة إلى داخل الأستوديو وكانها تهرب من شيء ما وبعد أن

ماتت جمعتني المصادفة بزوجها واستوقفته لدقائق وحاولت أن أفهم منه شيئا لكنه لم يزد على أن قال « يوما سيعرف الناس أنها كانت أشرف امرأة على أرض العراق وأنها لو لم تكن كذلك لما قتلت » ومضى في طريقه . وحكيت لذكية العطار عن هذا اللقاء العابر فقالت هي الأخرى باقتضاب شديد « كانت شريفة وكانت عنيدة لهذا ذهبت » .

حضرت راجحة حفل عيد ميلادي في أحد فنادق بغداد في أول مارس 1979 وبدت طوال جلستها إلى جوار زوجها ساهمة شاردة . وحين خرجت من مبنى إذاعة صوت مصر العروبة لآخر مرة كانت سعيدة مبتهجة لغير ما سبب واضح ولوحت لي بيديها وهي تمضي وأرسلت لي كعادتها قبلة في الهواء وقالت بلهجة عراقية « مع السلامة » ومضت ولكن في الطريق إلى الموت .

وأغلب ظني أن زوجها سوف يحكي القصة كاملة عندما يكون ذلك في إمكانه وأظنها ستكون وصمة أخرى في جبين البعث العراقي . وصدام حسين !!

الانقلاب الدموي .

في أول يوليو 1979 كنت قد أنهيت مرحلة الترشيح للعضوية ومرحلة العضوية تحت الاختبار وأصبحت عضوا وأقسمت كما يقسمون بالحزب القائد والثورة على الولاء والالتزام وأبلغني حسين طعمه أنهم سيقيمون احتفالا بهذه المناسبة السعيدة !! ضمن احتفالاتهم بأعياد ثورة السابع عشر من تموز « يوليو » وفجأة انفجرت أحداث أخرى مريرة وخطيرة .

كان على رأس السلطة في العراق أحمد حسن البكر وكان صدام حسين الرجل الثاني في السلطة الذي يبدو للجميع أكثر قوة وأقوى نفوذا لكن الحقيقة أنه كان يمثل محورا ويقوده بينما يمثل البكر محورا آخر وبرغم صلة القربى بين الرجلين فلقد كان لكل أتباعه ومؤيدوه وحين استخدم عدنان حسين في اجتماع حزبي اصطلاح البعثية العاقلة والبعثية المتهورة سارع الكثيرون من محور صدام حسين لتفسير مقولته

بأنها تعني المقارنة بين مجموعة البكر ومجموعتهم .

وكانت طموحات صدام حسين لاحدود لها كما تحدث المقربون له وكان معه عدد غير قليل من أعضاء القيادتين القومية والقطرية بينهم طه يس رمضان وطارق عزيز وعدنان خير الله « ابن خاله وشقيق زوجته » .

الإطاحة بأحمد حسن البكر وأنصاره .

توفيت زوجة البكر قبل هذه الأحداث بعدة شهور وفجأة أعلن عن مصرع ابنه الكبير وعدد من أسرته في حادث سيارة مدبر كرسالة مفهومة المغزى وصلت ووضح مضمونها واستقال البكر في خطاب إلى الشعب واكتفى بلقب الأب القائد ، وفي اليوم التالي كانت مجموعته تتعرض لمحاكمة هزلية بتهمة التآمر لقلب نظام الحكم والعمالة للبعث السوري وفي مشهد رهيب اصطف عشرات القادة الحزبيين والوزراء واصطف في مقابل كل منهم أحد رفاقه من نفس درجته الحزبية وانطلقت الأعيرة النارية ليلحق عدنان حسين وزير التخطيط ومحمد عايش وزير الصناعة ومحمد محجوب وزير التربية وغانم عبدالجليل وزير التعليم العالي ومحيي عبدالحسين مدير مكتب البكر ومعهم عشرات آخرون بقوافل ضحايا البعث جزاء محاولتهم مقاومة انفراد صدام حسين بالسلطة .

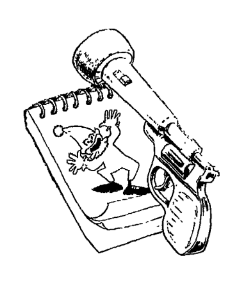
في صباح يوم 16 يوليو استدعيت مع آخرين إلى أحد مكاتب القيادة القومية لحزب البعث وأبلغنا عدنان الكبيسي مسئول التنظيم في مكتب مصر أن تغييرات هامة ستجري على الساحة العراقية وأن الرئيس البكر سيذيع بيانا إلى الشعب معلنا استقالته ونقل السلطة إلى صدام حسين ومن الطريف حقا أنه أبلغنا بما سيحويه الخطاب دون أي اختلاف .

وبعد يومين استدعينا مرة أخرى إلى مبنى ضخم وفي قاعته الفسيحة وجدنا منصة يجلس خلفها طه يس رمضان عضو القيادة القومية وحسين طعمة مدير مكتب مصر ومعهما مدير مكتب سوريا وعلى المنصة جهازا « فيديو وتليفزيون » وأبلغنا طه يس رمضان تفاصيل ما أسماه بالمؤامرة السورية المتورط فيها عدد من عناصر القيادة

وعرض علينا فيلما يروي فيه محيي عبدالحسين مدير مكتب البكر تفصيلات المؤامرة ــ بعد وعد بالعفو عنه ــ لكنه أعدم مع الآخرين .

كانت المحكمة العبثية التي حاكمت هؤلاء جميعا برئاسة نعيم حداد عضو القيادة القومية وكان هو أحد المحاضرين في الدورة العربية التي عقدت في نهاية عام 1979 بمدرسة الإعداد الحزبي وضمت بعثيين قياديين من كل الأقطار العربية بينهم أربعة مصريين كنت أحدهم ورد نعيم حداد على سؤال من أحد طلبة الدورة وكان سوريا يقيم في أوربا بأن التحقيقات في محاكمات يوليو تمت بسرعة وأن مدة المحاكمة لم تتجاوز خمسة أيام وأن التحقيق لم يثبت أية علاقة لسوريا بالمتآمرين لكن القيادة « إشارة إلى صدام حسين » كانت مقتنعة بأنها مؤامرة وسورية أيضا !! وكان سؤال البعثي السورى هو عما إذا كانت هناك وثائق وأدلة قاطعة تجزم بدور سوري في المؤامرة ، كان ضمير حداد قد استيقظ فيما بدا لجميع طلاب هذه الدورة وكانت دماء رفاقه على ما أظن تصرخ في أعماقه .

لهذا لم يمر وقت طويل حتى أعدم نعيم حداد .. ولحق برفاقه .



إعدام حسين طعمة

بحثت بعد إعدامات يوليو 1979 عن عدد من الأصدقاء والرفاق فلم أجدهم وسألت عن كثير فلم أعثر لهم على أثر ووجدت من نصحني ألا أجهد نفسي في البحث والتحري ذلك أن مشهد الإعدامات الذي رأيناه كان مجرد افتتاحية في مأساة كبيرة وأن مئات آخرين أعدموا في صمت وآلافا غيرهم تواروا خلف الزنازين يعذبون حتى الموت . كان بين هؤلاء حسين طعمة مدير مكتب مصر الذي كان لآخر يوم على منصة واحدة مع طه يس رمضان حين شاهدنا اعترافات محيي عبدالحسين الكاذبة .

كان حسين طعمة ثاني بعثيين أحببتهما وكان الأول هو فاضل الشاهر مدير الدائرة العربية بوزارة الخارجية حاليا وعضو المكتب الثقافي بالقيادة سابقا وكان حسين طعمة مثقفا ومؤدبا ويرجع له الفضل في أنني تجاوزت مشاكل كثيرة صادفتني في العراق وأزمات عديدة واجهتني مع جهلة البعث وكان يمكن أن تودي بحياتي وحين علمت نبأ إعدامه حزنت مرتين مرة من أجله ومرة لأن الذي خلفه في موقعه كان هو عدنان الكبيسي ، وبحثت عن السبب .

طه يس رمضان الجلاد .

قرر صدام حسين أن يتولى إعدام كل قيادة من هؤلاء الذين تقرر إعدامهم قيادة أخرى من نفس الدرجة الحزبية ووقع الاختيار على حسين طعمة لإعدام محيي عبدالحسين وعلم هو بذلك قبل أن يكلف رسميا بمعرفة مسئوله طه يس رمضان وانشقت الأرض وبلعته ثم ظهر بعد أن تمت الإعدامات وبرر اختفاءه بمرض مفاجئ ألم به لكنه اعتبر متآمرا أو متخاذلا واقتيد إلى القيادة ليجد أمامه طه يس رمضان

وبعد أقل من ساعة كان في رحاب الله وكان رفيقه اللدود عدنان الكبيسي في مكانه رئيسا لمكتب مصر .

إعدام عدنان الكبيسي أيضا .

كان عدنان الكبيسي على عكس حسين طعمة مكتئبا جاهلا متغطرسا لايمت بصلة لأية قيمة شريفة وكان الأستاذ أحمد عباس صالح يسألني كلما رآه « من الذي عين هذا الرجل في هذا الموقع » لكن عدنان لم يستمر في موقعه أكثر من عام واحد بعدها فصل من الحزب وعاد إلى عمله مدرسا بإحدى المدارس الابتدائية لمدة أسبوع واحد يعيش الرعب الذي كان ينشره حوله فلقد كان يعرف مصيره وأرسل في بداية الحرب العراقية الإيرانية إلى قاطع البساتين حيث تولت فرق الموت التي تسمى كتائب الإعدام تصفيته هناك وكانت تهمته هي عدم الولاء للحزب لكنني لا أعرف حيثيات التهمة .

إبراهيم المصري .

إبراهيم المصري هو الاسم الحركي لشاب مصري من حي العباسية بالقاهرة ذهب إلى العراق يبحث عن عمل وجندته المخابرات العراقية وكلفته بمهام خطيرة داخل سوريا ظل بسببها يتردد على المحافظات السورية لأكثر من عام وكان في ذات الوقت بعثيا ورشحه مسئول سوري يدعي هيكل غريب للعمل في إذاعة صوت مصر العروبة « الأرشيف » في غير أوقات تكليفاته الأخرى وبدأ يتردد على الإذاعة وتمت بيننا الثقة وحكى لي تفاصيل علاقته بالمخابرات العراقية ودقائق مهامه داخل سوريا وعبر لي عن قلقة الدائم وفزعه من أن تكشفه الأجهزة الأمنية السورية لكثرة تردده برغم تعدد جوازات سفره بين الأسماء والجنسيات . وفجأة اعتقلته أجهزة الأمن العراقية وظل لفترة طويلة داخل المعتقلات حيث مارس عليه ثامر الجبوري وأعوانه أبشع ألوان التعذيب ثم أفرج عنه بعد تجريده من جواز سفره المصري وأية أوراق تثبت شخصيته وأبلغ بعدم مغادرة العراق .

كان السبب كما علمت أن الشاب المصري رفع تقريرا التمس إعفاءه من المهام

التي كانت تكلفه بها المخابرات خشية أن يكشف لكثرة تردده مع قبوله لأية تكليفات أخرى واعتبر متخاذلا ومترددا وأظن أنه لايزال رهن الإقامة الجبرية في بغداد إذا كان لايزال على قيد الحياة .

محمد عبدالسلام .

وكان محمد عبدالسلام هو الآخر واحدا من الشباب المصري الذي استغلت المخابرات العراقية ظروف غربته وجندته للعمل في أوساط المصريين في شارع الرشيد وله دور مهم في تجنيد الشباب المصري ضمن قواطع الجيش الشعبي التي ساهمت في الحرب العراقية الإيرانية وله أدوار أخرى عديدة وكان هو أيضا أحد الذين اعتقلتهم أجهزة الأمن العراقية ومارست عليهم صنوف بشاعتها وإرهابها ولا يزال هو الآخر رهن الإقامة الجبرية في بغداد إذا كان لا يزال هو أيضا على قيد الحياة . ولم تكن جريمته تتعدى أنه حين ذهب مع أحد قواطع الجيش الشعبي إلى جبهة الحرب ومع ملل الخندق اعترف بأسرار علاقته بالمخابرات العراقية لرفيقه في أحد المواقع في مدينة خرامشهر الإيرانية .

صافيناز كاظم مرة أخرى .

وكادت الكاتبة المصرية صافي ناز كاظم أن تعتقل بناء على تقارير أمنية أفادت أنها متدينة وتتعاطف مع الثورة الإيرانية غير أن القرار عدل إلى فصلها من الحزب وطردها من العراق وأدعي الآن أن موقفي الحاسم كان ضد اعتقالها بحجة أن ذلك سوف يحدث أزمة في أوساط المثقفين المصريين وسوف يسيء إلى الحزب . وكانت درجتها الحزبية المحدودة عاملا مساعدا فالمعروف أن الإعدام هو قدر كل من يفصل من الحزب إذا كان بدرجة عضو فما فوقها .

فتحي خليل وثعلب لافونتين .

أعتقد أنه ينبغي فتح ملفات ظروف وفاة الصحفي المصري فتحي خليل ذلك

أنني أعتقد أن يد البعث كانت وراء فصولها النهائية .

كان فتحي خليل أحد الذين أدوا دورا مهما في إذاعة صوت مصر العروبة وكان أحد الذين تعاطفوا مع أحمد عز الدين وحاولوا التصدي لعملية نقل سلطات الإذاعة إلى البعثيين وعقد في منزله ببغداد اجتماع لهذا الغرض لكن القيادة اكتفت حينئذ باعتقال أحمد عز الدين في رسالة مفهومة إلى الآخرين وعاد المرحوم فتحي خليل يعمل معنا بهمة ونشاط في إطار ما كان يسميه « دور من أجل مصر » وبرغم خلافات حدثت بيني وبينه في البداية إلا أن علاقتنا قد توطدت وأثنى مرارا على دوري الإعلامي وقال لي ذات مرة مادحا « كنت أظنك بعثيا لكنك مصري صميم وناصري مخلص » .

وفي عام 1980 سافر فتحي خليل إلى لبنان لأسباب تخصه وكتب هناك مقالا نشرته السفير البيروتية بعنوان « ثعلب لافونتين والحركة الوطنية المصرية » كان ملخصه أن هناك قوى سياسية على الساحة العربية حاولت ابتلاع الحركة الوطنية المصرية فلما فشلت ادعت أنها قد شاخت و لم تعد تصلح لشيء وراحت تعمل بهمة ونشاط في صنع حركة أو تنظيم مصري تستطيع استخدامه لأغراضها مستغلة ظروف المصريين وغربتهم وشبه ذلك بثعلب لافونتين الذي لم يستطع أن يصل إلى العنب فادعى أنه حصرم .

ووصلت الصحيفة إلى بغداد وعقد مكتب تنظيم مصر اجتماعا في حضوري لدراستها وأكد الجميع أن المقصود هو حزب البعث وأن فتحي خليل لن يعود إلى العراق مرة أخرى وقال ثامر الجبوري إن يد البعث ستصل إليه أينما كان ولكن فتحي خليل عاد إلى العراق بعد أسبوع واحد من نشر المقال في تصرف أذهل الجميع .

قررت القيادة منع فتحي خليل من الكتابة ومنعه في نفس الوقت من مغادرة العراق والتقيت به سرا بعد هذا القرار فقال لي بفزع « لم أكن أقصد البعث » ثم سألني بلهفة « هل تعتقد أن اعتقالي ممكن ؟ » .

بعدها بأيام قليلة لزم فتحي خليل سرير المرض وكلف مكتب مصر من يتابع علاجه حيث نقله إلى المستشفى التي قررت أنه مصاب بالسرطان وفي مرحلته الأخيرة

وحاول الأستاذ أحمد عباس صالح أن يحصل له على موافقة القيادة بالعلاج خارج العراق لكنه قوبل بالرفض .

ومات فتحي خليل !! كانت السيدة زوجته تقيم في مصر لكنها وصلت فجأة ليموت بين يديها وبين يدي وليقول لي قبل أن يموت عبارة لا أنساها « كان .... مسئولي في الحزب الشيوعي لكنني أحترمك ولا أحترمه » فكيف مات فتحي خليل وما هي العلاقة بين ثعلب لافونتين ومرض السرطان ؟ وهل لدى السيدة زوجته أدلة حاسمة على أنه مات بالسرطان ؟ أسئلة تبحث عن إجابة .

* * *

هذا ليس حصرا لجرائم البعث فتلك مهمة يتفرغ لها مثلي ــ الذي عاشها أحداثا أمامه ــ سنوات وسنوات ولكنها مجرد أمثلة ليس أكثر فعشرات المصريين قتلوا وآلاف منهم اعتقلوا وعذبوا وآخرون تركتهم هناك بغير مصير محدد .

ذات يوم نسي ثامر الجبوري نفسه وراح يتحدث في طلاقة غريبة ، فقال : « لست أعرف ماذا يريد العراقيون أكثر من هذا : حزب وثورة وثروة وقائد فذ ، ورغم ذلك فإن الذين يغوصون في داخل هذا الشعب مثلنا يدركون أنه غير راض رغم نفاقه التاريخي للسلطة . ترى البعثي في الاجتماعات والتظاهرات الحزبية وكأنه ولد بعثيا وكأن السيد الرئيس القائد هو عشقه الأول والأخير وتعس وراءه فإذا هو عدو لدود للحزب وللثورة وللقائد وتضبطه متلبسا في أوكار المعارضة » .

أنصحك أن تعود إلى مصر .

وفي بداية عام 1980 سافرت إلى بيروت في مهمة إعلامية وكلفت السفارة العراقية هناك أحد صحفييها بمرافقتي وتسهيل مهمتي ، وفي آخر ليلة لي معه كنا نتناول العشاء في مطعم يقع داخل البحر وبالقرب منا السفير الفرنسي وطاقم سفارته وعدد

من اللبنانيين وكان حواري مع الدبلوماسي العراقي يدور حول أزمة مصر الاقتصادية باعتبارها أهم أسباب قبول الشعب المصري لمنهج التسوية مع إسرائيل وفجأة قال مرافقي العراقي :

« تريدون حل مشكلة زيادة السكان خذوا صدام حسين عندكم . في ظل هذا الرجل لايمكن أن يزيد عدد السكان . العراقي يتزوج كثيرا وينجب كثيرا والعراقية لا تعرف شيئا عن تحديد النسل أو تنظيم الأسرة لكن النمو السكاني يبقى محدودا عندنا ؛ لأن صدام حسين على رأس السلطة ، ففي مقابل كل عراقي يولد هناك عراقي يعدم وفي مقابل كل رجل يتزوج هناك رجل يعتقل ويخرج غير قادر على الإنجاب هذا إذا خرج ناهيك عمن يفرون من العراق » ، ثم قال في حسرة وعصبية : « هل تعرف مجيد سلطان ؟ كان يمكن أن أكون وهو معي بين ضحايا صدام حسين فلقد حكمت علينا منظمتنا الحزبية بالإعدام قبل عشر سنوات . لكن الله سلم » ، ثم صمت بعض الوقت وقال : « أعرف أن رفاقنا المصريين ليسوا من كتاب التقارير الأمنية وحتى لو كتبت اننا نموت كل يوم ، تريدني أن أنصحك في أول فرصة تتاح لك عد إلى مصر ، أقصى ما يمكن أن يحدث لك هناك أيام رهن التحقيق وأيام رهن الاعتقال وتعود إلى أهلك . عندنا ستموت لمجرد أنهم لم يجدوا غيرك ليقتلوه » .

* * *

في لقاء مع صدام حسين .

وفي أبريل عام 1980 قدر لي أن أرى صدام حسين ضمن مجموعة من القادة الحزبيين ، ذهبت للتهنئة بذكرى تأسيس الحزب ، وكانت واقعة إعدام الإمام آية الله محمد باقر الصدر وشقيقته العالمة بنت الهدى لا تزال مثار اهتمام عام وضجة إعلامية ، وتحدث إلينا صدام حسين مركزا على ما تردده طهران حول هذه

الجريمة ، وأتذكر بالحرف الواحد بعض عباراته : « يطالبوننا بالعدل فهل من العدل أن يخون الإنسان وطنه ، ويدعون أننا لا نعرض هؤلاء الخونة على محاكمة عادلة فهل سيكون في العراق من هم أعدل من البعثيين وقادتهم » .

وصمت برهة ثم نظر نحوي وقال : « ردوا عليهم . قولوا لهم إن صدام حسين سيقطع ذراعه إذا خانته ، وإن وقت الحزب والثورة لن يضيع هباء وسط ادعاءات دفاع وادعاءات اتهام ومداولات قضاة قولوا لهم إننا سنسحق عملاءهم كلما وجدناهم » .

هكذا نصب صدام حسين نفسه خصما وحكما ، ورغم ذلك فإنه يحتفظ لديه بنقابة محامين ووزير للعدل . وبشامر الجبوري وأمثاله أيضا .



الحرب العراقية الإيرانية
والتنظيم المصري

العراق هي المعتدية .

كنت أعلم بطبيعة الحال أن كل المبررات التي ساقها صدام حسين ليبدأ عدوانه على إيران كاذبة وملفقة وأن خطة عسكرية كانت قيد البحث منذ بداية عام 1980 شارك في إعدادها خبراء عسكريون إيرانيون مناهضون للثورة الإيرانية ، واعتمدت على تقارير أمريكية وغربية أفادت أن الجيش الإيراني فقد قادته وقدراته وفعاليته ولا يستطيع أن يواجه الجيش العراقي ، وكنت أتابع حملات الاعتقالات والإعدامات في صفوف رجال الدين الشيعة وتجهيز أعداد كبيرة من العراقيين الموالين لإيران وعمليات التخريب العراقية داخل إقليم خوزستان الإيراني وأعرف أن هذه كلها مقدمات للحرب .

وكان هناك من نقل لي كل مادار في الاجتماع الحزبي الواسع الذي عقد قبل الحرب بشهرين وترأسه صدام حسين وألغى فيه اتفاقية مارس عام 1975 وشرح لهم الأوضاع والخطط والأهداف ، والشيء الوحيد الذي لم ينقله صدام حسين في هذا الاجتماع هو موعد بدء الحرب . وكان بوسعي أن أطلع على الكثير من الحقائق وأولاها ذلك الدور الذي أنيط بالإعلام العراقي لتصعيد الموقف مع أيران ولبرمجة أهداف عربية لهذه الحرب ولتقديم صدام حسين إلى جماهير الأمة العربية على أنه القائد الملهم والمنقذ الوحيد وبطل التحرير القومي . هو عبدالناصر بغير سلبياته وإذا كانت معارك السويس عام 1956 هي التي فتحت آفاقا عالمية لعبدالناصر فإن صدام حسين هو حارس البوابة الشرقية للوطن العربي هكذا كانوا يقولون .

الحرب ضد إيران دعم لإسرائيل .

وحين بدأت هذه الحرب في الثاني والعشرين من سبتمبر عام 1980 شعرت بالمرارة والضيق وإلى حد كبير ، ربما لأنني رأيتها جريمة بغير مبرر وظلم لثورة ولشعب كان يمكن أن يكون عونا للأمة العربية بعد أن كان حليفا لأعدائها وربما لأنني أدركت منذ البداية أن هذه الحرب سوف تشل إمكانات الأمة العربية في مواجهة عدوها الوحيد في فلسطين المحتلة كما شلت كامب ديفيد إمكانات مصر في هذه المواجهة وربما لأنني أحسست بحجم جريمة هؤلاء الذين يكذبون بغير حياء ويعتدون ويظلمون بغير وازع من ضمير وربما لكل هذه الأسباب .

القضاء على سلاح الطيران الإيراني .

وفي المساء كانت بغداد مظلمة ومر على مسكني مسئول عراقي ليصحبني إلى عملي في مكتب مصر وفي الطريق كان المسئول يدير مذياع سيارته على موجة إذاعة صوت الجماهير ، وكان المذيع العراقي يؤكد باستمرار أن الطيران الإيراني أصبح أثرا بعد عين ، ووجدت نفسي أندفع قائلا : « لامبرر لهذه المبالغات ، أرجوك أن تتصل بالرفيق حميد سعيد ، فلنكن موضوعيين حتى تتكشف الأمور » . أبدى المسئول العراقي موافقته لكنني تنبهت إلى أنني ينبغي أن أحترس وألا أكشف مشاعري .

* * *

الجيش الشعبي

المعروف أن آلافا من المصريين قد شاركوا في القتال إلى جانب الجيش العراقي من خلال ما يسمى بالجيش الشعبي الذي كان ضمن مسئوليات طه يس رمضان وكان ضمن مسئولياته الأخرى الإشراف على التنظيم المصري ومكتب مصر بشكل

عام . ويتألف الجيش الشعبي من فرق تسمى قواطع ، وينقسم كل قاطع إلى سرايا تسمى قواعد وتتألف كل قاعدة من عدة فصائل تسمى جماعات ، والمعروف أيضا أن فكرة الجيش الشعبي كانت منفذة قبل الحرب غير أن مهامه كانت تقتصر على حراسة المنشآت الهامة والمكاتب الحزبية ، ومع اتساع رقعة الأرض التى احتلتها القوات العراقية في إيران ، فلقد صدرت الأوامر بأن يتولى الجيش الشعبي المساعدة في السيطرة عليها .

اشتراك المصريين في القتال .

وتبدأ قصة المشاركة المصرية في قواطع الجيش الشعبي منذ الأسبوع الأول للحرب حين وقفت المخابرات العراقية عددا من الشباب المصري المرتبط بها للعمل على تحريض المصريين الموجودين في العراق على إبداء مشاعر تعاطف مع الجيش العراقي في حربه ، وتولى هذه المهمة في شارع الرشيد ثلاثة من الشباب المصري هم محمد عبدالسلام وعبدالمجيد الشال ، وهكذا انهالت البرقيات على القيادة القومية وعلى مكتب صدام حسين من مصريين يعلنون استعدادهم للمشاركة في القتال ، وكانت معظمها من شباب بسكن منطقة « المربعة » إحدى مناطق شارع الرشيد .

حولت القيادة ومكتب صدام حسين هذه البرقيات إلى مكتب مصر الذي أحالها إلىّ مع تأشيرة بضرورة الاتصال بهؤلاء الشباب وإبلاغهم تحيات القيادة وشكرها وبأن القيادة سوف تدرس إمكان اشتراكهم في القتال مستقبلا ؛ وذهبت إلى مرسلي البرقيات وأبلغتهم ما أرادته القيادة ووجدتهم قد جمعوا بعض المبالغ واشتروا بعض الهدايا وأرسلوا برقيات أخرى يطالبون فيها بالسماح لهم بزيارة جرحى الحرب وأثار اهتمامي أنهم مجموعة شباب غير متعلم يقودهم محمد عبدالسلام وهو في نحو الثلاثين من عمره ، قال لى إنه من محافظة الشرقية في مصر وكان هناك متطوعا في القوات المسلحة ويعمل في العراق نقاشا وقال لي أصدقاؤه إنه لا عمل له ولقد أثار دهشتي أنه حتى محمد عبدالسلام لا يمتلك إي قدر من الوعي ولدرجة أنني حين ناقشته في أو مصر كان خالي تماما ، وكل ما يعرفه أن السادات زار إسرائيل

وصالح اليهود وقاطع العرب بدون أية أبعاد حقيقية لهذه المواقف السياسية الخطيرة

ولم يكد يمر أسبوعان على بدء الاتصال بمجموعة الشباب هذه حتى قابلني رافع الكبيسي الذي تولى مسئولية التنظيم المصري بدلا من عدنان الكبيسي وتحت رئاسة علي الفراس مدير المكتب الجديد وطلب أن أنظم له لقاء بهؤلاء الشباب في مدرسة بمنطقة التبادين القريبة من شارع الرشيد .

كان اللقاء يوم جمعة والتقى الكبيسي بأكثر من خمسين شابا مصريا في وجودي وشرح لهم أسباب الحرب كما لفقتها القيادة وشكرهم على مشاعرهم تجاه العراق والحزب وطلب إليهم تسجيل أسمائهم للاتصال بهم عند الحاجة .

ومر على هذا اللقاء أكثر من ستة أشهر حتى تقررت الاستعانة بمتطوعين مصريين وعرب في قواطع مستقلة ضمن الجيش الشعبي يشرف عليها مكتب تنظيم مصر وأبلغني عبدالرزاق الجقابي قرار القيادة وطلب أن أرتب له لقاء مع الشباب البعثي وغير البعثي في شارع الرشيد وتم تكليف هؤلاء خاصة البعثيين منهم بالاتصال بمن يعرفونهم لترغيبهم في التطوع .

أصدرت القيادة تعليماتها بهذا الشأن ونصت على أن يكون اشتراك البعثيين المصريين إجباريا وعلى أن يعتبر التجنيد لهذه القواطع مهمة لكل بعثي شأنها شأن عملية الكسب الحزبي وتوضع في الاعتبار ضمن أسباب ترقيته حزبيا وتقييم ولائه وإخلاصه كما أبلغت جميع مؤسسات الدولة وتنظيمات الحزب غير العراقية بأن تتولى دورها بحماس شديد في عملية تجنيد المصريين والعرب للانخراط في صفوف الجيش الشعبي ، وهكذا بدأ التجنيد مشابها لعمليات الكسب الحزبي : تهديد وترغيب وضغوط ومساومات لغير البعثيين ثم يستكمل أي عجز في الأعداد بالتكليف الحزبي للبعثيين المصريين دون أن يكون لهم حق الرفض أو الاعتذار .

التطوع المصري الإجباري .

أطلق الشباب المصري على عملية التطوع تلك تندرا « التطوع الإجباري »

وكما لمست بنفسي فإن ضغوطا عديدة مورست سواء من رؤساء المؤسسات والمنشآت والمصالح العراقية التي يعمل بها مصريون أو من قيادات حزبية كانت تتصل بهم لهذا الغرض وهكذا تشكل القاطع الأول وأطلق عليه اسم قاطع مصر العروبة وأرسل إلى معسكرات التدريب ضم أكثر من خمسمائة مصري كان بينهم الشاعر محمد عفيفي مطر دون أن تكون لديه فرصة الرفض أو الاعتذار .

أصبح تجنيد المصريين والعرب سياسة مقررة وتكليفا حزبيا لأية قيادة بعثية عراقية أو عربية ومهمة متواصلة لمكتب مصر فكان على مسئول التنظيم « رافع الكبيسي » أن يعد التكليفات الحزبية ويقدم كشوفا بأسماء البعثيين وغير البعثيين الذين تم تجنيدهم بمعرفة التنظيم وكان على « عدنان الدهش » مسئول العلاقات العامة أن يتصل بالقوى السياسية الأخرى لتقديم مساعداتها وكان على مدير المكتب « علي الفراس » أن يعد الكشوف النهائية ويرسلها إلى مكتب طه يس رمضان وأصبح ضمن أهم أسس تقييم البعثي المصري وإلى جانب الكسب الحزبي عدد الذين استطاع تجنيدهم لهذه المهمة .

اعتقال محمد عبدالسلام .

في أحد قواطع الجيش الشعبي المصرية ذهب محمد عبدالسلام إلى إقليم الأهواز الإيراني ومن هذا الموقع اقتيد إلى أحد المعتقلات العراقية وأبلغني عبدالمجيد الشال بالأمر فحاولت الاستفسار عنه ولم أجد غير إجابة واحدة تفيد بأنه أساء التصرف بالجبهة فتم اعتقاله وبذلت جهودا عديدة للإفراج عنه ولا أعرف حتى الآن إن كانت جهودي تلك هي التي أخرجته من محنته بعد أكثر من شهر أم أن الإفراج عنه بعد سحب جواز سفره والتنبيه عليه بعدم مغادرة العراق كان لأسباب أخرى .

التعذيب الوحشي .

زارني محمد عبدالسلام بعد خروجه من المعتقل وحاول أن يبدو متماسكا رغم علامات الانهيار التي بدت على وجه وادعى في بداية الأمر أنهم عاملوه معاملة حسنة

لكنني كنت قد قررت أن أحل ألغاز هذا الشاب المصري خاصة بعد أن تملكني شعور بأنه يعيش أزمة حقيقية لا يستطيع أن يبوح بها لأحد فاستدرجته وأوهمته أنني أعلم كل شيء عنه وذكرت له اسم الضابط الذي تولى التحقيق معه وكان هو ثامر الجبوري وانفجر محمد عبدالسلام باكيا وتخلص أمامي من ملابسه فبدت على جسده آثار تعذيب وحشي ثم كشف الحقيقة كاملة قال : إن المخابرات العراقية جندته بعد وصوله إلى بغداد بأقل من شهر وكان يبحث عن عمل وأنهم كلفوه بنشاط في أوساط التجمعات المصرية في شارع الرشيد واعترف بأن جهوده مع آخرين من العناصر المرتبطة بالمخابرات العراقية لدفع المصريين إلى إبداء مشاعر تعاطف ورغبة في مشاركة العراقيين الحرب كانت بتوجيه من مكتب المخابرات في شارع الرشيد وكشف لي أن هذا المكتب هو ذاته الشقة التي تقع أسفل شقتي والتي تظل مغلقة معظم الوقت وعلى بابها لافتة تقول إنها مقر مجلة النهضة اليمنية !! ولطالما سألت نفسي عن هذه المجلة التي لم تصدر أبدا ، خاصة أن عملي في مجال الإعلام يقتضي الاطلاع على كل ما يصدر من صحف ومجلات داخل العراق وخارجه !!

الوشاة والمخبرون في كل مكان .

وكان سبب اعتقال محمد عبدالسلام أنه ــ ومع ملل الخندق في صحاري إيران ــ كشف أسرار علاقته بالمخابرات العراقية لأحد رفاقه . لكن هذا الرفيق سارع إلى رفع تقرير أمني ضمنه اعترافات محمد عبدالسلام الذي تصور لفرط سذاجته أن رفقة الخندق ووحدة المصير على جبهة حرب تطهر النفوس وتزكيها وتهذب الأخلاق وتصقلها ، لكنه البعث .

* * *

كان دوري بطبيعة الحال رئيسيا في هذه القواطع ، فلقد تحول مسكني إلى مركز رئيسي لتشكيل هذه القواطع ومقابلة المتطوعين وتسجيل أسمائهم وحتى توديعهم ضمن طاقم مكتب مصر إلى معسكرات التدريب ثم إلى الجبهة كما أصبحت مسئولا عن التغطية

الإعلامية لهذه التجربة من خلال مسئوليتي عن إذاعة صوت مصر العروبة التي خصصت برنامجا لهذا الغرض ، وكنت في العادة أزور كل القواطع في مواقعها إما لتسجيل لقاءات مع المجندين المصريين لإذاعتها ضمن هذا البرنامج أو لأسباب حزبية تنظيمية تتصل بلقاء بعثيين مصريين في هذه القواطع لبحث أمور استجدت معهم ولا تحتمل انتظار عودتهم أو لحل مشاكل تكون قد حدثت هناك مثلما حدث عندما أوشكت أن تنشب معركة بين قاعدة من قاطع مصري وسرية من القوات الخاصة العراقية يقودها ضابط كردي في جبال مهران حين اعتدى هذا الضابط على مقاتل مصري في القاعدة ووجه إليه ما يعتبر إهانة لمصر كلها ، فتذمرت القاعدة وحدثت أزمة كان حلها نقل الضابط بسريته إلى موقع آخر حيث قتل هناك . ويبدو أن القيادة رأت أن دوري هذا يعتبر كافيا وأن مسئولياتي الأخري تمنع تجنيدي في أي قاطع مدة القاطع كانت تصل إلى شهرين .

صدرت التعليمات بتجنيدي في الجيش .

لكن تعليمات حزبية جديدة صدرت جعلت تجنيد البعثيين حتى درجة عضو قيادة فرقة حتميا بغير استثناء وكانت درجتي حينئذ هي عضو قيادة فرقة فأبلغني رافع الكبيسي بأن أستعد لأن أقود قاعدة في قاطع قادم وعشت أياما سوداء ليس لأنني أخاف الجندية أو أرهب الحرب فلقد كنت أحد ضباط الجيش المصري في عبور أكتوبر العظيم وإنما لأنني لم أتصور أن أشارك مباشرة في هذه الجريمة ولا أستطيع أن أطلق رصاصة واحدة في اتجاه إيران .

الاتحاد العام العراقي لشباب وطلاب مصر .

كنت قد أصبحت عضوا في الاتحاد العام لشباب وطلاب مصر كما سيرد التفصيل لاحقا ، وهو ما كانت تهتم به القيادة كثيرا وكان مقررا أن يعقد الاجتماع كل ثلاثة شهور في مقر الاتحاد بالعاصمة الإسبانية وكان موعد الاجتماع يلي موعد إرسال القاطع الذي تقرر أن أكون أحد قياداته بأسبوع فذهبت إلى معسكرات

التدريب وبعد ثلاثة أيام فقط أنقذني الاتحاد من هذه الورطة وأبلغ مكتب مصر بضرورة وجودي للاستعداد للسفر إلى إسبانيا فاستدعاني المكتب وأطلت مكوثي في مدريد إلى أن سافر القاطع إلى الجبهة .

الهروب من القتال ضد إيران .

وفي القاطع الذي تلاه تقرر أن أقود إحدى قواعده كذلك ، لكن القدر كان رحيما بي وأصبت « بخراج » في ساقي ولزمت الفراش وأطلت فترة المرض إلى أقصى حد وإلى أن أصبح التحاقي بهذا القاطع أمرا مستحيلا . ولم يعد هناك مفر من أن أذهب في القاطع الذي شكل بعده باسم قاطع جمال عبدالناصر فتوكلت على الله وذهبت لكنني كنت عازما على أن أكون إذا اقتضت الضرورة سيفا في صدر الباطل البعثي وليس بأي حال سيفا في يده . وانتهت مدة القاطع بعد خمسة وأربعين يوما دون أن تطلق رصاصة واحدة في منطقة مهران كلها الذي كانت مسئولية هذا القاطع في إطاره .

* * *

المصريون الذين يقاتلون في صف صدام أسرى .

لا أبالغ إذا قلت وبعد اطلاعي على التجربة كلها وزيارتي لكل القواطع التي تشكلت واشتراكي كقيادة ضمن أحدها فإنني لم أعثر بين هذه القواطع المصرية على مقاتلين إنما كانوا جميعا أسرى سقطوا في يد صدام حسين وحزبه فدفعهم بكل الوسائل إلى القتال ، ومن الحقائق الجديرة بالذكر أن المقابل المادي الذي يتقاضاه الجند المصري كان زهيدا بحيث لايمكن لأحد أن يدعي أن ذلك كان بين أسباب تطوعه ، إذ كان ما يتقاضاه المصري المعين في وظيفة حكومية هو سبعمائة وخمسين فلسا في اليوم بمجموع عشرين دينارا في الشهر بينما يتقاضى الجند من أصحاب المهن الحرة أو غير العاملين في وظائف حكومية ثمانين دينارا في الشهر وهو مقابل زهيد وبعض

هؤلاء كانوا يخسرون ماديا خاصة أصحاب المهن الحرة .

إن أخطر سلبيات هذه التجربة كان هو ضعف مستوى التدريب إلى حد كبير وقصر مدته رغم أن هذه القواطع أو بعضها شارك في قتال حقيقي في معارك دفاعية مهمة حين هاجمت القوات الإيرانية مواقعهم ، لهذا استشهد عدد كبير ولقد وعدت القيادة العراقية ذات يوم أن يعامل الشهيد المصري معاملة الشهيد العراقي لكن ذلك لم يحدث أبدا ، فلقد كانت أسرة الشهيد العراقي تحصل على سيارة فارهة ومسكن فاخر وعشرة آلاف دينار وهو مالم يحدث بالنسبة للمصريين ، ويكفي أن صدام حسين حين استسلم لإيران طالب بأسراه ونسي أن يطالب بهؤلاء الذين دفعتهم ظروفهم التعسة أن يكونوا أدوات في جريمته .

جرائم صدام غير الإنسانية في القتال .

لقد مكنتني تجربة القواطع المصرية في الجيش الشعبي العراقي أن أزور مواقع جبهة القتال على طولها وأن أتعرف عن كثب على جرائم يندى لها جبين الإنسانية ارتكبها صدام حسين بحق إيران والإيرانيين كان بينها هدم مدن إيرانية بكاملها وسرقة مقدرات الإيرانيين وأمتعتهم واغتصاب الإيرانيات وقتلهن واستعمال الأسلحة الكيماوية المحرمة دوليا وأخلاقيا والاعتداء على المساجد والمدارس وقتل الأطفال وممارسه الشذوذ البعثي معهم .

اغتصاب النساء في الحرب .

يوم زرت قرية البساتين الإيرانية وهي مدينة صغيرة تقع في مواجهة مدينة العمارة العراقية وجدت عجوزا تبيع الخبز الجاف وكانت من إحدى الأسر التي تنتمي إلى أصل عربي في هذه المنطقة الإيرانية ، وحاولت أن أستفز عروبتها ولا أزال أذكر ما قالته السيده بلهجة عربية خليجية : « أي عرب إنهم يهتكون أعراضنا » .

ولقد فسرت مقولتها تفسيرات مختلفة غير أن الرفيق عبدالخالق الديلمي أحد

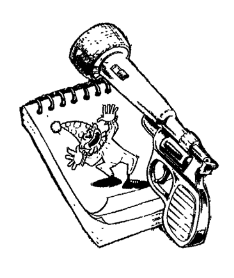
قاده الجيش الشعبي في هذه المنطقة اعترف لي أن مقاتليه يغتصبون نساء القرية .

الفساد في الأرض .

وحين زرت فندق شط العرب في مدينة البصره استعدادا لزيارة خورمشهر الإيرانية « المحمرة » المقابلة لها ، قال لي أحد موظفي الفندق يفخر « هذه السجاجيد فارسية أتينا بها من المحمرة » وتأكدت بنفسى من أن الجنود العراقيين اعتبروا ممتلكات الإيرانيين غنائم حرب .

وفي القاطع الأوسط من الجبهة يفخر البعثيون وهم ينظرون عبر الحدود من مدينة بدره العراقية إلى المنطقة المقابلة ويشيرون إلى جرار وحيد لا يزال منصوبا ويقولون « كانت هنا مدينة إيرانية اسمها مهران وهدمناها » لكن مرافقا عراقيا قال لي بحزن واضح وغضب « كان السكان في مهران كما هو حالهم في بدره نصف عراقيين ونصف إيرانيين فبين المدينتين اللتين تقفان على جانبي الحدود علاقات نسب ودم منذ زمن طويل » .

وحاولت دائما أن أسأل نفسي كلما ذهبت إلى الجبهة هل كانت إصابة كل هذه المساجد في كل هذه المدن والقرى الإيرانية مجرد مصادفة وهل يملك رجل واحد هو صدام حسين كل هذا الحقد على العرب وعلى المسلمين وعلى الإنسانية عموما ؟



التحالفات البعثية

الاتحاد العام لطلاب وشباب مصر

كان بوسع الذين يترددون على القيادة القومية ومكتب مصر بصفة خاصة أن يلاحظوا أن فئة معينة من الناصريين المصريين تعامل معاملة خاصة ويسمح لها على الأقل بالتردد على هذه الأماكن التي لا يتيسر لأحد أن يقترب منها بغير مبرر قوي مالم يكن قيادة بعثية وكان بوسع من يراقب بدقة في بغداد أن يرى وجوها ناصرية معينة تزور بغداد بين الحين والحين وتحظى باهتمام خاص .

كان ذلك واضحا لي منذ بدأت العمل في إذاعة صوت مصر العروبة وقابلت عبدالمجيد فريد لدى فاضل الشاهر وكان واضحا أيضا حين اطلعت على قرار تشكيل لجنة الإعلام ووجدت على رأسها الكاتب الناصري أحمد عباس صالح وكان واضحا أكثر حين انتقلت الإذاعة إلى أحد مقرات القيادة القومية و لم يخصص مكتب فيها لغير البعثيين المهمين إلا للأستاذ أحمد عباس صالح أيضا وكنت أكثر ماألتقي في مكتب مصر بالأستاذ عبدالمجيد فريد والمهندس أحمد حماده والدكتور رفعت العجرودي والدكتور نبيل درويش وغيرهم .

وذات يوم قال لي حسين طعمه « إن الناصريين سيشكلون حزبا يسمونه طليعة الاشتراكيين الناصريين وسوف ندعمهم . نحن نريد معابر كثيرة إلى مصر ولا نريد أن يكون الشيوعيون أحد هذه المعابر » .

بعدها التقيت بالأستاذ عبدالمجيد فريد وأبلغني أنه شكل حزبا بنفس الاسم الذي أبلغني به حسين طعمه وأن لهذا الحزب وجودا مهما داخل مصر وإن كانت معظم قياداته خارجها وأنه يسعى لتوحيد الحركة الناصرية داخل مصر وخارجها في إطار هذا الحزب .

كان الأستاذ عبدالمجيد فريد يقيم في لندن ويرأس مركزا للدراسات الاستراتيجية العربية تموله العراق تمويلا كاملا ، وكانت القيادة العراقية قد خصصت له في بغداد مسكنا مريحا وكان من قيادات هذا الحزب الذين يقيمون في بغداد كذلك الأستاذ محمود السعدني والأستاذ أحمد عباس صالح والأستاذ أحمد حمادة وكان بين قياداتهم أيضا الدكتور نبيل درويش والدكتور رفعت العجرودي وكانا يقيمان في الجزائر وآخرون أيضا .

أسفرت العلاقات بين مجموعة طليعة الاشتراكيين وحزب البعث عن توقيع اتفاق تحالف بين الحزبين واتفق الطرفان على أن ينسقا العمل معا ضد نظام السادات وأن ينشئا تنظيمات مشتركة تعبر عن هذا التحالف واعتبرت إذاعة صوت مصر العروبة إحدى صيغ هذا التحالف لكن الاتحاد العام لطلاب وشباب مصر كان هو أولى ثمار هذا التحالف وآخرها أيضا !!

مع بداية عام 1980 كانت مجموعة القيادات الشبابية المصرية من حزب طليعة الاشتراكيين الناصريين تتدارس فكرة إنشاء الاتحاد العام لطلاب وشباب مصر لملء فراغ الاتحاد العام لطلاب مصر ومنظمة الشباب الاشتراكي وهما مؤسستان كان نظام السادات قد أجهز عليهما ضمن ما أجهز عليه من مؤسسات ناصرية أخرى وعقد هؤلاء الشباب الناصري عدة اجتماعات في الجزائر لهذا الغرض ولم يبق أمامهم للتنفيذ غير الدعم المادي ؛ وهكذا نقلت الفكرة إلى الأستاذ عبدالمجيد فريد ليدبر التمويل اللازم فنقلها بدوره إلى القيادة العراقية لتقدم الدعم لكن القيادة العراقية التي كانت قد بدأت تشعر أن لديها تنظيما مصريا مهما درست الفكرة بعمق وقررت أن تدعمها بشرط أن يكون الاتحاد تنظيما ناصريا بعثيا مشتركا أو كما قال لي علي الفراس مدير مكتب مصر : « وجدناها فكرة جيدة وفرصة لإثبات وجودنا على الساحة المصرية للجميع » .

تقرر إنشاء الاتحاد بدعم عراقي كامل على أن يتولى تحالف البعثيين والناصريين بجهد مشترك ومتكافئ الدور الرئيسي فيه في مراحل التنفيذ المختلفة وعلى أن يكون

هذا الجهد منسقا ومبرزا للتحالف القائم بينهما وتقرر أن يختار طليعة الاشتراكيين قيادة شابة ليتولى التنسيق مع قيادة بعثية شابة يختارها مكتب مصر ويتولى الاثنان معا هذه المهمة لوضعها موضع التنفيذ .

اختار الأستاذ عبدالمجيد فريد المهندس كمال زايد رئيس الاتحاد العام لطلاب مصر سابقا واختارني مكتب مصر وبدأت اجتماعات اللجنة التحضيرية بيني وبين كمال زايد وحضرها عدد من الشباب البعثي اخترتهم بالتنسيق مع مكتب مصر وعدد من الشباب الناصري اختارهم كمال زايد بالتنسيق مع قيادة طليعة الاشتراكيين الناصريين وبعد عدة اجتماعات اتفق على عقد المؤتمر التأسيسي للاتحاد في مدريد باسبانيا في شهر مارس 1981 وأن تدعو اللجنة التحضيرية القيادات الشبابية المصرية من داخل مصر ومن كل دول العالم لحضور هذا المؤتمر وكان مفهوما بطبيعة الحال ونظرا لسرية العناصر البعثية أن الدعوة بالنسبة لهم سيتولاها مكتب مصر وألا يتدخل طرف في اختيارات الطرف الآخر ، لكن حزب البعث أبلغ عبدالمجيد فريد أسماء ناصرية لا يريدها في هذا المؤتمر وكان بينها بطبيعة الحال الصحفي المصري الشاب أحمد عز الدين .

وجهت الدعوات للشباب الناصري بالطرق العادية ووجهت الدعوات إلى البعثيين على طريقة البعث ، تكليفات حزبية يبلغها لكل مرشح لحضور المؤتمر مسئوله الحزبي ومعها كلمة سر على أن أكون أنا المسئول الوحيد عن هذا العمل وفق توجيهات الحزب ، ولايجوز لبعثي أن يأخذ تعليمات من غيري ولايجوز أن يخالف هذه التعليمات بحال من الأحوال .

استدعاني علي الفراس مدير مكتب مصر قبل السفر إلى مدريد وأبلغني تعليمات واضحة أولها أن المتفق عليه مع عبد المجيد فريد هو أن يصدر المؤتمر التأسيسي بيانا يؤيد فيه موقف العراق من الحرب من إيران ويندد بما أسماه العدوان الإيراني وقال علي الفراس إن هذا البيان سيكون تحصيل حاصل إذ سبق أن ندد طليعة الاشتراكيين بالعدوان الإيراني وأعلن استعداده للقتال إلى جانب العراق وثاني هذه

التعليمات هو أن يكون للبعث ثلاثة مقاعد في اللجنة القيادية للاتحاد التي ستشكل من سبعة عناصروقال إن عبدالمجيد فريد وعدهم بذلك أيضا وثالث هذه التعليمات هو أن الحزب قد وجه الدعوة إلى بعثيين يقيمون في أوروبا وكلفهم بحضور المؤتمر وأعطاهم كلمة السر للاتصال بي وأصدر لهم أمرا حزبيا بتنفيذ ما أكلفهم به حرفيا وبدقه وقال لي علي الفراس في نهاية اللقاء لقد تحالفنا مع طليعة الاشتراكيين لهدفين الأول هو أن نحتوى عناصرهم ونتعرف عليها ونحاول تجنيدها والثاني هو أن نستخدمهم لأغراض تخدم أهداف الحزب في التواجد الفعال على الساحة المصرية وقال أيضا وهو يودعني إنها مهمة كبيرة نعتمد فيها عليك بشكل كامل ونرجو أن تتعامل مع الناصريين باعتبارك ممثلا للبعث الحزب القائد في مصر في يوم قريب !! ثم قال وكأنه تذكر شيئا سيكون الرفيق عبدالجبار جاسم في مدريد أيضا لتنظيم عملية التمويل ويمكنك الرجوع إليه إذا تعذر عليك شيء .

توافد أكثر من خمسين شابا مصريا على فندق فيكتوريا بمدريد استعدادا للمؤتمر بينهم أكثر من عشرين بعثيا كان نصفهم من المقيمين في العراق ونصفهم الآخرن من عواصم أوروبا المختلفة وبدأت اللقاءات بين البعثيين والناصريين تمهيدا للمؤتمر وكانت المفاجأة أن شباب طليعة الاشتراكيين الناصريين يعتبرون المؤتمر فرصة للتنديد بالعدوان العراقي على إيران ظهر ذلك في المناقشات الصاخبة التي دارت في صالة المطعم وكافتيريا الفندق قبل بدء المؤتمر وحين اتصلت بكمال زايد لمناقشته في الأمر كانت المفاجأة الثانية . قال كمال زايد إن موقف الناصريين من هذه الحرب هو ماسمعته من الزملاء وأنه لن يتسنى لهذا المؤتمر إصدار بيان بتأييد العراق فإذا كان لابد من موقف من هذه الحرب فسوف يندد المؤتمر بالعدوان العراقي وقال أيضا إننا لا نوافق على منح البعثيين مقاعد في اللجنة التنفيذية للاتحاد لمجرد أنهم دعموا المؤتمر ماديا . إننى لا أري في المؤتمر بعثيين غيرك والباقون مجرد أراجوزات يتحركون كما تأمرهم وقال هل تعلم ماذا فعل البعثي الذي جاء من إيطاليا اليوم لقد طرقت غرفته ليعطيني اسمه لأبلغه لإدارة الفندق بناء على طلبها فرفض أن يتحدث معي قائلا لن أتحدث إلا مع مسئولي الذي حدده الحزب .

بعد حوار طويل مع كمال زايد اتضح لي أن المؤتمر لن يصدر أبدا بيانا يؤيد فيه العراق في حربه ضد إيران واتضح لي أيضا أن الناصريين لن يسمحوا بثلاثة أعضاء في اللجنة التنفيذية للاتحاد وقال لي كمال زايد سننتخبك لكونك ناصريا وليس لكونك بعثيا وربما سمحنا أن يكون معك بعثي آخر وأصبح الموقف عصيبا وذهبت إلى عبدالجبار جاسم أعرض عليه الأمر وأرى ما ينصح به فوجدته كعادته غارقا بين كؤوس الخمر فاقد الوعي تماما فعدت وبدأ المؤتمر في صباح اليوم التالي .

ذهبت إلى عبدالجبار جاسم في الصباح المبكر قبل بداية المؤتمر بساعة وأيقظته من النوم وبمجرد أن بدأت الحديث قال أعرف وأكمل هو « إن الناصريين لن يؤيدوا العراق في الحرب ولن يمنحوهم أكثر من مقعدين في اللجنة التنفيذية للاتحاد » سألته كيف عرف فأخرج لي صورا من أوراق كانت هي صور اجتماع عقده الشباب الناصري وحدهم في مدريد لتنسيق العمل وقرروا فيها كل شيء واستطاع عبدالجبار جاسم سرقتها وتصويرها !!

سألت عبدالجبار جاسم عما يمكن عمله فقال إنه سيتصل بالقيادة ويبلغني ما تراه ثم قال ولماذا لاتتصرف أنت ألست مخولا ، كان مرهقا من كثرة السهر والسكر فتركته وذهبت فلقد لمعت في ذهني فكرة أن ينجح المؤتمر بأي ثمن ومهما كانت النتائج .

كنت في الواقع مؤيدا لما يراه الناصريون وسعيدا بموقفهم وجرأتهم ورأيت أن إفشال المؤتمر سيكون وصمة عار أخرى في جبيني بشكل شخصي فقررت أن ينجح المؤتمر وليكن ما يكون .

بدأت جلسات المؤتمر الذي حضرته وفود عديدة من الاتحادات الشبابية العربية بدعوة من الناصريين كان بينها وفد سوري ووفد ليبي وحين كانت الجلسة التي نوقشت فيها الحرب العراقية الإيراينة كاد المؤتمر أن ينفجر بين تنديد البعثيين بإيران وتنديد الناصريين بالعراق .

كنت على منصة المؤتمر في هذه الجلسة فطلبت من المؤتمرين إسقاط مناقشة

الحرب العراقية الإيرانية وقصر أعمال المؤتمر على القضايا المصرية وقضية فلسطين باعتبارها قضية عربية مركزية ولقي الاقتراح قبولا جماعيا وهكذا صدر البيان الختامي الذي نشر وأذيع في حينه خاليا من أية إشارة إلى هذه الحرب .

وحين كانت الجلسة الأخيرة التي أجريت فيها انتخابات اللجنة التنفيذية وقف الدكتور نبيل درويش وعرض اقتراحا بانتخاب سبعة حددهم بالاسم كان بينهم اثنان من البعثيين أنا وناجي عيد ، ووقف الدكتور رفعت العجرودي يؤيد الاقتراح معلنا أن ناجي عيد هو شقيق الدكتور حسن عيد أحد قيادات منظمة الشباب الاشتراكي لهذا يزكيه وأشار إلي قائلا : « أما هذا الرجل فلقد ساهم بدور مهم في التحضير لهذا المؤتمر وفي إنجاحه وأثبت خلال المناقشات أنه ناصري جيد لهذا أزكيه » ، ووافق المؤتمر بالإجماع على الاقتراح وتشكلت اللجنة التنفيذية على غير ما أراد البعث .

بعد العودة من المؤتمر قدمت تقريرا إلى القيادة أكدت فيه أنه لم يكن بالإمكان أفضل مما كان وشرحت كل الظروف بصدق ولم يكن بوسعي أن أفعل غير ذلك إذ إنني كمسئول بعثي كنت أعرف أن البعثيين الآخرين الذين حضروا المؤتمر سيكتبون هم الآخرون تقاريرهم .

وبدأ الشقاق يدب بين البعث والناصريين من حزب الطليعة وتصور الناصريون لفترة أنني نقلت بعض أسرارهم إلى القيادة حتى كانت جلسة بين طه يس رمضان وعبد المجيد فريد وواجهه بالأوراق التي سرقها عبدالجبار جاسم من كمال زايد وذهل عبدالمجيد فريد إذ كانت الأوراق حاسمة لكن أحدا لم يكن يتصور أن البعثيين لصوص أيضا .

استطاع عبدالمجيد فريد أن يبرر ما حدث بأن حزبه غير حزب البعث وأنه لا يستطيع أن يصدر أمرا فينفذ أو تعليمات فلا يخالفها أحد كما يستطيع البعث ، واتفق على أن يستمر الاتحاد لكن التحالف كان قد بدأ في الانهيار واستطاع عبدالمجيد فريد أن يحافظ على علاقته الخاصة بحزب البعث .

* * *

كان تحالف البعث والناصريين في الواقع عملا ضد التاريخ وضد طبيعة البعث وأهدافه وضد تراث الناصريين وفكرهم أيضا .

كان ضد التاريخ لأن تاريخ البعث هو سلسلة من التحالفات المشبوهة أو التحالفات التكتيكية التي يستهدف البعث منها أهدافا خاصة ويستهدف في الوقت ذاته ضربها بعد أن يحقق أهدافه منها وتجربة الوحدة مع سوريا دليل واضح فلقد هرعوا إلى مصر يستهدفون التحالف مع عبدالناصر حين زلزلت الجماهير الأرض تحت أقدامهم وأحاطت بهم من كل جانب أسباب الانهيار وتصوروا أن عبدالناصر سيمكنهم من سوريا وأنهم يمكن أن يتسللوا من خلالها إلى مصر أيضا فلما كشف عبدالناصر أهدافهم وأصر على أن يحلوا حزبهم وحاصر أنشطتهم وحجم دورهم في سوريا تآمروا على الوحدة وأيدوا الانفصال . ويذكر تاريخهم أيضا أنهم حين تحالفوا في سوريا مع حزب الشعب في بداية الخمسينيات كان هدفهم أن يضربوه وأن يخترقوه لهذا تحول التحالف إلى عداء . حتى عندما حدثت محاولات تقارب بين البعث السورى والعراقي في أعقاب زيارة السادات للقدس وبدا تحالفهم ووحدتهم أمرا ممكنا سارع البعث العراقي إلى قطع الطريق على أية نوايا طيبة واستحال التقارب عداء أمر مما كان قبله .

وكان شباب طليعة الناصريين يعرفون ذلك جيدا وكانوا يدركون أن البعث يستهدف مستقبلا شق صفوفهم وابتلاع كوادرهم كلما أمكن وتحويل الاتحاد إلى مؤسسة بعثية .

وكان التحالف عملا ضد طبيعة البعث وأهدافه فكيف يقبل الحزب القائد !! تحالفا يكون للناصريين فيه نصيب الأسد إلا إذا كان في نيتهم طعن الأسد ذاته في المستقبل وكيف يقبل حزب المستقبل العربي !! أن يصنع هذا المستقبل مع غيره وكيف يستهدف الحزب الاستيلاء على السلطة في مصر ثم يدعم غيره ويقويه .

وكان التحالف كذلك ضد تراث الناصريين وفكرهم فلطالما حذر عبدالناصر من البعث وتآمره وليس في تراث الناصريين أكثر من رفض أساليب البعث ومؤامراته

وأكبر من كراهية هذا الحزب والعداء له هكذا كان يتم تثقيف الشباب في منظمة الشباب الاشتراكي .

وكان معظم الحاضرين في قاعة المؤتمر من كوادرها وقياداتها .

* * *

كتب أحد البعثيين الذين كانوا يعيشون في لندن تقريره عن المؤتمر فاتهمني فيه بالتواطؤ مع الناصريين مؤكدا أنني منعت المؤتمر من الاستمرار في مناقشة الحرب العراقية الإيرانية وأنه كان كفيلا لو استمرت المناقشات أن يقنع جميع الحاضرين بوجهة نظر الحزب من هذه الحرب لكنه اضطر للالتزام حسب تعليمات الحزب وكتب أيضا أنه سمع كمال زايد بنفسه وهو يشكرني على إنهاء المناقشات خوفا من انهيار المؤتمر ـــ وهي واقعة حدثت ـــ وأحيل التقرير إليّ للتعقيب عليه فعقبت قائلا : « ان تقول الوفود المشاركة إن البعثيين آثروا نجاح المؤتمر على مصلحتهم أفضل من أن يقال إنهم أفشلوا المؤتمر حرصا على مصلحتهم » .

وكتب بعثي آخر يدعي أن بعثيا كان دائم الخروج من الفندق مع ناصري وأنه شاهدهم معا أكثر من مرة في شوارع مدريد !!

وطالب بعثي ثالث بسحب جواز السفر العراقي من مصري يدعى محمد البقري كان يدرس في بولندا ومنح هذا الجواز بوساطة شخصية من الأستاذ عبدالمجيد فريد وأظن أن هذا الجواز سحب فعلا !! كان البقري ناصريا من مجموعة عبدالمجيد فريد .

* * *

كانت خطة البعث للاستيلاء على الاتحاد العام لطلاب وشباب مصر بسيطة

جدا كما شرحها لي علي الفراس بعد ذلك ؛ فلأن الناصريين هم أصحاب الفكرة ولديهم كادر متقدم وأكثر قدرة في هذا النشاط وهم أيضا أصحاب هذه المؤسسة الشبابية أصلا التي ألغاها السادات « منظمة الشباب الاشتراكي » فلقد وافقنا على أن يكون لهم أربعة مقاعد واكتفينا بثلاثة مقاعد . لكننا في نفس الوقت وطدنا علاقتنا بأحد هؤلاء الأربعة ومنحناه جواز سفر عراقيا « محمد البقري » وكان يمكن أن نركز عليه ونكسبه ونكون قد عدلنا الميزان المقلوب لصالح البعث القائد !! هكذا قال .

وقال لي كمال زايد بعد أن التقينا في مصر : « كنا نعرف هدفهم جيدا وكنا واثقين أنهم يريدون السيطرة على الاتحاد ولم نكن على استعداد لأن نصنع للبعثيين منظمة شبابية بعثية ونسلمها لهم لمجرد أنهم دفعوا الثمن » .



أزمات ومواقف

أزمة أميرة

سافرالأستاذ أحمد عباس صالح إلى دمشق لحضور مؤتمر للأدباء عقد هناك عام 1980 وعاد إلى بغداد وحضر إلى مقر إذاعة صوت مصر العروبة ودخل إلى مكتبي حيث وجدني جالسا مع عبدالجبار جاسم مسئول الإعلام في مكتب مصر وباصي قفطان المشرف على الإذاعة ونهضت لمصافحته والترحيب به وتهنئته بسلامة العودة و لم أكن أعرف أن الرجل قد أحضر لي من سوريا قنبلة موقوتة !!

قال الأستاذ أحمد عباس صالح وهو يصافحني بطيبة قلب وسلامة نية « كان ينبغي عليك أن تقول لي إن ابنة أختك شخصية مهمة في سوريا إنها تسلم عليك كثيرا » سألته مدهوشا « من هذه » قال مستغربا سؤالي « أميرة » وراح يتحدث عن أهميتها في البعث السوري .. فجر الرجل دون أن يدري قنبلة كان يمكن أن تعصف بي ذلك أن البعثي يسجل في بداية انتمائه كشفا بأسماء أقاربه حتى الدرجة الرابعة خاصة الذين يعملون في مؤسسات أمنية وإعلامية أو الذين ينتمون إلى أحزاب مناهضة ، وكانت أميرة هذه فتاة تدعى أمينة تمت لي بصلة قرابة عن طريق أمها واعتادت قبل أن تسافر إلى دمشق للدراسة في جامعتها أن تعتبرني خالها . وكانت قد تزوجت هناك من شاب مصري عمل في الإعلام السوري بعد تخرجه من جامعة دمشق وكان فيما يبدو منتميا للبعث السوري ، لهذا حضرت أمينة مع زوجها المؤتمر وتعرفوا على الأستاذ أحمد عباس صالح وحملوه تحياتهم لي أو قنبلتهم الخطيرة تلك .

على الفور أبلغ عبدالجبار جاسم ما سمعه لثامر الجبوري وقامت الدنيا و لم تقعد وعقدت الاجتماعات لبحث الموقف فربما أكون في العراق بتكليف من أمينة

التي نطق اسمها الرجل أميرة وكان لخطئه في النطق فائدة كبرى وربما أكون جاسوسا للبعث السوري ولأميرة . هكذا ظنوا واستدعيت إلى المخابرات العامة وعندما مثلت أمام ضابط هناك لا أعرفه شعرت أن الأمر جد خطير وسألني الرجل بتجهم « لماذا لم تبلغ الحزب أن ابنة شقيقتك في البعث المنشق » .

كنت خائفا إلى حد كبير ولكنني رأيت أن أبدو متماسكا وأجبته بحزم « اسمع أيها الرفيق ينبغي أن تعرف أن أكبر شقيقاتي لم تتزوج بعد وبالتالي فليس لي ابنة شقيقة لا في سوريا ولا في مصر وينبغي أن تعرف أن أبي ليس له أشقاء ومن ثم فليس لدي بنات عمومة يمكن أن تكون إحداهن قد أنجبت من تدعى أميرة . إنني أعلم أن بوسعكم أن تتثبتوا من المعلومات وبوسعي أن أوقع لك الآن إقرارا بأنه إذا ثبت أن لي ابنة شقيقة في أي مكان في العالم فإني أقبل عقوبة الإعدام » .

واندهش الرجل وأبدى مدهوشا ثم سألني : « فمن هي التي حمل لك منها الأستاذ صالح تحياتها » قلت له : « لا أعرف كل ما أعرفه أنك ينبغي أن تتثبت مما قلته لك قبل أن تظلم بعثيا مخلصا ! وربما كان في الأمر مكيدة لي » .

وأنكرت تماما أن لي بالفعل قريبة تدعى أميرة ولم أشا أن أصرح له أن واحدة من قريبتي تدعى أمينة وبيني وبينها صلة قربى بعيدة هي التي أرسلت التحية وخرج الرجل من مكتبه وعاد بعد خمسة دقائق قائلا : « حسنا سنتثبت من الأمر ثم نرسل لك » .

وبعد أسبوعين عشتهما في قلق وفزع مروع أرسل لي الضابط من يعتذر لي فلقد تأكد من أن ما قلته له كان صحيحا وقال لي ثامر الجبوري بعد ذلك إن الأمر كان خطرا فبقدر أهميتك الحزبية كانت خطورة أن يكون لك قريبة مهمة لدى الحكم السوري ولم تبلغ عنها وأكد لي أن قرار اعتقالي كان جاهزا لولا أن هناك من اقترح عدم التضحية بك قبل التثبت وقبل سماع دفاعك خاصة وأنه كانت لدينا معلومات مسبقة أن شقيقتك الكبرى أرسلت لك قبل هذه الواقعة تستشيرك في شاب تقدم لخطبتها وتطلب مساعدتها لإتمام الزواج .

وكان للتجسس على خطابات البعثيين فائدة !!

أزمة ذكية .

ذهبت إلى مكتبي ذات يوم من شهر ديسمبر عام 1979 فأبلغني مسئول الأمن أن عدنان الكبيسي يستدعيني على عجل فتوجهت إلى مكتبه فإذا به يفاجئني بأمر غريب فلقد نقل له أحد أفراد الحراسة في مبنى الإذاعة أنه شاهدني من زجاج نافذة مكتبي أقبل المذيعة العراقية ذكية العطار ، وقال عدنان الكبيسي : « تعرف أنه لا شأن لنا بالعلاقات الخاصة ونحن نعرف أن بينك وبين ذكية بعض الود ولكن مقرات القيادة القومية مقدسة لدينا ولا يجوز أن تكون مكانا لمثل هذه الممارسات » .

كانت التهمة كاذبة وكنت أعرف أن الذي لفقها هو هيكل غريب مساعد عبدالجبار جاسم وهو سوري في الأصل يقيم في العراق وكان سبب إقدامه على ذلك أنه يريد إبعاد ذكية العطار من العمل في الإذاعة بعد أن استعصت عليه ورفضت محاولاته العديدة للتقرب منها ، وفور أن واجهني عدنان الكبيسي بذلك الادعاء الكاذب أدركت « الملعوب السوري » لكنني تركت عدنان الكبيسي يستطرد فقال : « نحن حريصون عليك ونعرف أنك تتحمل عبئا ضخما في الإذاعة لهذا قررنا استبعاد ذكية العطار من الإذاعة » .

أحسست بضيق شديد لنوعيات البعثيين ونوعية أكاذيبهم فقلت لعدنان الكبيسي : « من حقك يارفيق أن تستبعد ذكية العطار لكن من حقي أن أبلغك أن الادعاء كاذب وأن صاحبه ليس جندي حراسة إنما هو الرفيق هيكل غريب ، لهذا فإن استبعاد المذيعة سيسيء إلى سمعتي وسيحول ادعاء كاذبا إلى حقيقة ومادمت أنك قد قررت استبعادها فأرجو أن ترفع رغبتي إلى الرفيق طه يس رمضان بترك العمل في الإذاعة خاصة أن نشاطي التنظيمي يحتاج إلى مزيد من الوقت والجهد » .

كان الكبيسي رجلا أحمق متغطرسا كما سبق القول وتصور أنني أتحداه واعتبر أنني أخالف التعليمات الحزبية فأنهى اللقاء بعجرفة معلنا أنني سأحال إلى تحقيق

حزبي ، وخرجت من مكتبه إلى الإذاعة فلم أجد ذكية العطار وعلمت أنه اتصل بأمن المقر وأمرهم بطردها من الإذاعة وثارت أعصابي ومضيت إلى مسكني في تصعيد للتحدي وكتبت تقريرا سلمته لمسئولي الحزبي بتفاصيل ما حدث معتبرا أن قرار الكبيسي يسيء إلى سمعتي في الإذاعة لهذا أعتذر عن الاستمرار في العمل وأقبل أية تكليفات حزبية أخرى .

رفع التقرير إلى طه يس رمضان فأشر عليه تعود ذكية إلى العمل ويبلغ الرفيق أبو داود « اسمي الحركي » بأنه لا يجوز الاعتذار عن تكليف حزبي وفي حالة تكرار تصرفه سيحال إلى تحقيق حزبي واعتبر قرار عضو القيادة القومية نصرا لي على مسئول التنظيم ، وهناك من نصحني بالحرص من عدنان الكبيسي لكنه بعد شهر واحد من الواقعة فصل عدنان الكبيسي من الحزب وأعدم لعدم الولاء للحزب .

وقال لي عبدالجبار جاسم إن تصرفي كان مخالفة حزبية خطيرة وكان ممكنا أن تؤدي بي إلى مخاطر جسيمة لكن موقف عدنان الكبيسي حزبيا في هذه الفترة كان ضعيفا وكانت الشبهات حوله كثيرة قلت له لم أكن أعرف كل هذا لكنني كنت أدافع عن سمعتي .

أزمه الزهرة .

دورة مدرسة الإعداد الحزبي هي أهم ما يمر نه البعثي في حياته فهي دورة تعقد لكبار القادة الحزبيين من مستوى عضو قياده فرقة وعضو شعبة وعضو قيادة شعبة ولا يجوز ترقيه حزبيا بغد هذه الدرجات ما لم يحضر هذه الدورة .

وفي هذه الدورة تتم مراقبة البعثي بدقة حتي في ممارساته الشخصية ويتم تثقيفه بأفكار الحزب وإطلاعه على أسراره التي لم يطلع عليها من قبل فيقال له مثلا إن البعث عقيدة وأنه لا يجوز الإيمان بعقيدة غيرها بما في ذلك العقائد الدينية ويقال له صراحة نحن اغتلنا حردان التكريتي حتى لايبوح بأسرار حزبية أخرى . هذا على سبيل المثال .

ومدرسة الإعداد الحزبي هي مبنى فخم يشبه الفنادق الكبرى يقيم فيها البعثي إقامة كاملة لمدة شهرين ويقدم له كل ما يحتاجه خلال هذه الفترة وهي على أية حال تشبه إلى حد كبير كلية أركان الحرب في النظام العسكري .

ويحاضر في مدرسة الإعداد الحزبي أعضاء القيادة القومية والقطرية وكبار فلاسفة الحزب ابتداء من ميشيل عفلق وانتهاء بإلياس فرح ونزار الحديثي ويجيب هؤلاء عن أسئلة طلبة الدورة بصراحة ووضوح وتسجل أسئلة كل طالب إذ تدل على توجهاته ــ كما يعتقدون ــ وبانتهاء دورة الإعداد الحزبي يكون البعثي قد خضع لكل أنواع الرقابة والتقييم فإما أن تنفتح أمامه الدرجات الحزبية العليا وإما أن يعود أدراجه إلى الدرجات الحزبية الأولى وقد يفصل نهائيا .

ولم يحصل على هذه الدورة حتى عام 1982 غير أربعة بعثيين مصريين كنت أحدهم وهناك حدثت أزمة أسميتها في مذكراتي أزمة الزهرة !!

وبعد المحاضرات اليومية التي كانت تعقد صباحا ومساء كنت أقتل وقت فراغي كالعادة في محاولات شعرية رغم أن الصديق محمد عفيفي مطر كان يرى أن ما أكتبه لا يمت للشعر بصلة . لكني كنت أكتب وكان ذلك يريحني .

وفي مدرسة الإعداد الحزبي كتبت مجموعة خواطر أسميتها رسائل إلى أية فتاة عراقية واحتفظت بها في أحد أدراج مكتب بغرفة إقامتي . وذات يوم بحثت عن هذه الأوراق فلم أجدها ولم أهتم بالأمر ونسيته كله إلى أن كان يوم ...

قبل نهاية الدورة بأسبوع واحد استدعيت إلى مقر الغرفة العربية بالمسبح وقابلني هناك مسئول حزبي يدعى عبدالرحيم محمد وأخرج من حقيبته الأوراق التي ضاعت والتي حوت محاولاتي الشعرية وسألني « هل كتبت هذا ؟ » قلت له كتبته فأعطاني الأوراق وطلب أن أقرأ ماكتبت ولاحظت أن خطوطا حمراء وضعت تحت بعض الجمل كان بينها :

« أنا عصفور بري . لايعرف أرضا ولا يؤمن بقيود

وأنت سجينة أفكار وتقاليد عفى عليها الزمن

ورغم ذلك فليست هذه أول مرة يصنع الإنسان لنفسه قفصا ثم يدخل فيه بإرادته » .

وكان من بينها أيضا :

« إنني أعتقد أنه بين حقوقي أن احتج فحياتي هي احتجاج مستمر . هكذا فعلت في مصر ولهذا أيضا خرجت من مصر ودفعت غربتي ثمنا للرأي والاحتجاج . ولست أعرف ماذا يمكن أن أدفع بعد الرأي القادم » .

وكان من بينها كذلك :

« أصرخ احتجاجا على ما تفعلينه بالأزهار
فكل يوم تصلبين على صدرك زهرة
وتبكي الزهرة فلا تعيرين حزنها اهتماما
وكدت أصرخ فيك كي تخلعيها من أسرك
لكنني وللأسف لم أتعود أن أصرخ في وجوه الجميلات
« حين تعلقين الزهرة على صدرك . فهذا أمر جيد
فصدرك أجمل بستان عرفته شطوط دجلة
لكنه بستان يحزن فيه الزهر ويبكي
ويستعطفني أن أنقذه »

وقرأت ما كتبت كما طلب المسئول ثم انهال أسئلة تدور كلها حول معنى الزهرة فيما كتبت ولماذا تريد أن تحتج وأجبته بأن المسألة كلها لاتعدو تسالي شعرية لم أقصد بها شيئا غير مدلولات عاطفية ليس أكثر ومحاولة لقتل الوقت ما بين انتهاء المحاضرات وموعد النوم وأطلعني عبدالرحيم محمد على نص ما كتبه شاعر بعثي أحيل إليه ما كتبت فأكد أنني أنتقد الحزب وأن الزهرة عادة في الشعر ترمز إلى الحرية وحاولت أن أقنع الرجل دون جدوى .

إنني لم أقصد شيئا من هذا على الإطلاق بل لم أقصد أصلا أي شيء بالمرة

لكنه بدا غير مقتنع بما أقول وألهمني الله فكرة غريبة فقلت له : « يارفيقي لماذا تصر على إحراجي إن الحزب يعرف أنني على علاقة بفتاة تدعى صبيحة وتعمل في المؤسسة العامة لتدريب الشباب وهذه الفتاة تعلق عادة على صدرها زهرة حمراء فالزهرة أيها الرفيق هي زهرة صبيحة » .

الغريب أن الرفيق عبدالرحيم محمد اقتنع بهذا الادعاء وكتبه في أوراق سيرفعها إلى الحزب ، وقال وهو يصافحني مودعا سنتأكد أن صبيحة تضع زهرة على صدرها .

وكانت صبيحة بالفعل تضع هذه الزهرة ولا تنساها أبدا ولكن ماذا لو كانت قد تخلت عنها ؟!! مادام البعث يسرق الأوراق الخاصة .

أزمة الطليعة العربية .

كانت هناك فكرة لدى مكتب مصر لإصدار صحيفة مصرية في بغداد كوسيلة من وسائل نشر الفكر البعثي والتعبير عن مواقف الحزب في أحداث مصر وسياسات الحكم فيها وطلب مكتب مصر من عدة إعلاميين بعثيين مصريين دراسة الفكرة وكتابة تقرير عن كيفية تنفيذها . وكنت مع محمد عفيفي مطر وسعد زغلول فؤاد الذين قدمنا دراسة حول هذه الفكرة وووفق على تنفيذها .

وكان الأستاذ عبدالمنعم الغزالي مع مرور الوقت يحاول أن يثبت للحزب أنه أكثر إخلاصا وتفانيا في خدمته من البعثيين أنفسهم وكانت محاولاته تلك قد أسفرت عن تقارب شديد بينه وبين المسئولين في مكتب مصر رغم حساسيتهم الشديدة للتعامل مع الشيوعيين لهذا اقترح المكتب أن ينضم الغزالي إلى قائمة الذين سيصدرون الصحيفة خاصة أن سعد زغلول فؤاد كان قد غادر إلى فرنسا للعلاج و لم يعد ، ووافقنا على أن يكون رئيس التحرير أحد اثنين أنا أو عفيفي مطر وتحدد شهر مارس 1981 لإصدار الجريدة التي سميت الطليعة العربية .

وفي مارس 1981 كان عفيفي مطر قد ألحق بقاطع الجيش الشعبي المصري الأول وذهب إلى الجبهة وكنت أنا في مدريد لحضور المؤتمر التأسيسي للاتحاد العام

لطلاب وشباب مصر وعدت من أسبانيا لأجد أن العدد الأول للطليعة العربية قد صدر وأن رئيس تحريرها هو عبدالمنعم الغزالي فاعتبرت أن الأمر لا يعنيني وأنني لن أكتب في هذه الصحيفة تحت رئاسة عبدالمنعم الغزالي أبدا .

وطلب عبدالجبار جاسم أن أكتب في هذه الجريدة فأبلغته أنني لا أعمل تحت قيادة عبدالمنعم الغزالي وأن المسألة بالنسبة لي مسألة مبدأ فأبلغني أن ذلك تكليف حزبي فقلت له إنه سبق تكليفي برئاسة تحرير الصحيفة و لم أبلغ بأن هذا التكليف قد ألغي كما أن التكليفات الحزبية تبلغ عن طريق المسئول الحزبي وأنه ليس مسئولي .

وكتب عبدالجبار جاسم تقريرا إلى الحزب بما حدث وكتبت أنا الآخر تقريرا سلمته إلى مسئولي شرحت فيه وجهة نظري وبدا أنني دخلت صراعا ضد عضو قيادة مكتب مصر وهو من وجهة نظر أي بعثي صراع محسوم لصالح البعثي الأعلى درجة .

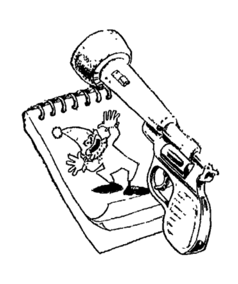
لكن علي الفراس وبعد أن عرض عليه التقريران رفض تصعيدهما إلى طه يس رمضان وأمر بأن يرفع اسم عبدالمنعم الغزالي من على صدر الصحيفة كرئيس للتحرير وكتب تأشيرة على التقرير المرفوع مني وكانت تقول :

« لا يجوز أن يسمح البعثي لغير البعثي بقيادته »

* * *

كان يمكن لأية أزمة من هذه الأزمات التي مرت بي أن تكون سببا لاعتقالي ومثلي هناك حين يعتقل فإنه لا يمكن أن يرى النور مرة أخرى فكلما زادت أهميتك في حزب البعث يكون اعتقالك مدعاة لإعدامك أو كما يرى ثامر الجبوري فإن من يدخل معتقلات البعث يعاديه بالضرورة ويصبح الخلاص منه محتما خاصة إذا كان يمتلك ما يضر به . لكن أهمية البعثي تجعل قرار اعتقاله قرارا خطيرا يعرض على أكثر من مستوى قيادي لإقراره .

ولقد كنت في الواقع مسئولا عن أكثر من مهمة حزبية بل عن كل المهام البعثية التي أنيطت بمكتب مصر وكما عرفت فيما بعد ـــ ويعرف ذلك كثير من قيادات العمل السياسي المصري في العراق ـــ فإنني المصري الوحيد الذي كانت القيادة تعده لتسلم قيادة مكتب مصر كما سلمت قيادات مكاتب أقطار أخرى لبعثيين من هذه الأقطار باعتبار أن ذلك دليل على قومية الحزب لهذا وبتوفيق من الله وببعض القدرة على التصرف في المواقف الحرجة مرت هذه الأزمات بسلام . لكنها تكشف بوضوح عن القلق والفزع والخوف الذي يعاني منه البعثي دائما .



الهروب من المأزق

ضميري يعذبني لوجودي في البعث

لم تغب عن ذهني أبدا فكرة الهروب من العراق منذ قابلت حسين طعمه عام 1977 إلى أن نفذتها بالفعل في مايو 1982 و لم أستطع طوال هذه المدة أن أقنع نفسي بأنني قد أصبحت بعثيا أو أنني يمكن أن أكون كذلك في يوم من الأيام ذلك أن فكرتي المسبقة عن هذا الحزب كحزب متآمر ودموي كانت تتأكد كل يوم وكان أغلبية البعثيين العراقيين الذين تعاملت معهم نوعا من البشر الذين يتعذر على الإنسان أن يتعامل معهم دون أن يصاب بالاكتئاب والقلق .

كلماسمعت عن إعدام بعثي كنت أوقن أن دوري في مسلسل الإعدامات قادم لامحالة وكلما اعتقل زميل أو رفيق أو صديق كنت أشعر أنني سوف أتعرض يوما لبشاعة معتقلات البعث ولست أعرف لماذا كانت المشاكل الصغيرة التي تحدث لي تبدو كأنها مشكلة العصر لكن المؤكد أن بعضا من أعراض التوتر العصبي المستمر مردها إلى سنوات البعث الكئيبة .

منذ وقعت استمارة البعث علمت أنه لايجوز مغادرة العراق بغير موافقة الحزب ومنذ أصبحت عضوا في لجنة الإعلام أيقنت أن الحزب لن يوافق أبدا على سفري لكن فكرة الهروب كانت تراودني دون أن تكون لدي وسائل مأمونة لهذا الهروب وحين سافرت لأول مرة إلى لبنان لم يكن ممكنا أن أفر منها إلى مصر فلقد كان لي شقيقان قد وصلا بأسرتيهما إلى العراق وعمل أحدهما مدرسا بمعهد فني وعمل الآخر مهندسا في شركة الدخان العراقية . لهذا عدت إلى العراق مرة أخرى رغم أنني كنت أعاني عذاب الضمير لأنني أعمل مع هؤلاء الناس وكنت أعاني من القلق والخوف المستمرين

ما يحتم البحث عن مخرج من مأزق البعث .

كنت أفكر أحيانا أنني سوف أواجه مصاعب في مصر بسبب مقالات عديدة نشرتها الصحف العراقية ومقالات وبرامج أخرى بثتها إذاعة صوت مصر العروبة وكنت أعرف أن الأمن المصري يستطيع أن يعرف بسهولة حجم نشاطي في العراق من المصريين العائدين أو بغير ذلك من الوسائل لكنني كنت أعرف أن لاشيء فيما يمكن أن يحدث لي في مصر يمكن أن يكون مانعا من العودة إليها .

خطة الهرب من البعث

وحين أصبحت عضوا في اللجنة التنفيذية العليا للاتحاد العام لطلاب وشباب مصر وأصبح متاحا لي أن أسافر بين الحين والآخر قررت أن أضع خطة للهرب وبدأت التنفيذ بالفعل ولكن بحرص شديد فافتضاح أمري سيعني نهاية حياتي .

أنهى أحد أشقائي عقد عمله وعاد بأسرته إلى مصر كانت تلك بداية الخطة على أن ينهي الآخر عقده بعد عدة شهور ويعود مع أسرته هو الآخر وهو ما حدث بالفعل وأصبحت وحدي بالعراق لا أبوح لأحد بسري الخطير .

وحين رحل السادات وبدا أن مصر قد دخلت عصرا أكثر ديمقراطية وأن الرئيس الجديد يرحب بعناصر المعارضة في الخارج ويطالبها بأن تعود بدأت العد التنازلي لي للعودة .

كان النظام العراقي قد غرق حتى أذنيه في مستنقع الحرب مع إيران وكانت مصر تمدلهم يد العون وبدأت بعض الأصوات تهمس لماذا نبقي على إذاعة مصر العروبة ؟ ثم بدأت أصوات ترتفع تطالب بتحويلها إلى إذاعة ضد النظام السوري وضد الثورة الإيرانية وكنت أحد الذين شجعوا هذا الاتجاه وبالفعل صدر قرار القيادة بأن يحل رياض عمر السوري الجنسية بدلا من باصي قفطان في الإشراف على الإذاعة وأن تكون توجهات البرامج فيها معادية لسوريا ومهاجمة للثورة الإيرانية بشكل أساسي وإن ظل اسمها مصريا وبقيت بعض برامجها تنقد على استحياء نظام حسني مبارك .

ورفعت تقريرا إلى القيادة اقترحت فيه إنشاء مقر للاتحاد العام لطلاب وشباب مصر في بغداد وقلت أنه في هذا المقر سنجمع الشباب المصري وسيكون التجنيد للحزب أكثر فعالية والدعوة لأفكاره من خلال هذا المقر أقوى تأثيرا ، ووافقت القيادة وافتتح المقر بالفعل وخصص لي فيه مكتب وبدأت أكثر من وجودي في المقر الجديد وأقلل من وجودي في الإذاعة معتمدا على وجود رياض عمر والتوجه الجديد للإذاعة .

وكان هدفي من المقر الجديد كذلك أن ألتقي أكثر بكمال زايد رئيس الاتحاد وأن استخدمه في مخطط الهروب وهو ماحدث بالفعل فلقد اقتربت من كمال زايد من خلال هذا المقر أكثر من ذي قبل وأزلت حساسيات كانت قائمة بيننا منذ مؤتمر مدريد ثم قصدت إلى هدفي مباشرة .

قلت لكمال زايد إنني في حاجة إلى أن أسافر إلى خارج العراق لبعض الوقت متعللا بأنني أريد أن أجري بعض الفحوص الطبية خارج العراق لمعاناتي الشديدة من صداع نصفي حاد وأن بوسعه بصفته رئيسا للاتحاد أن يتولى تكليفي بمهمة ما خارج العراق تتعلق بأعمال الاتحاد وأحصل بموجبها على موافقة الحزب على السفر ووعد كمال زايد أن يفكر في الأمر .

وبعد بضعة أيام أبلغني كمال زايد أنه سيكتب مذكرة تفيد بضرورة افتتاح مقر في الجزائر للاتحاد العام للشباب وبضرورة متابعة تنفيذ بيان مشترك كنا قد أصدرناه من قبل مع اتحاد الطلبة المغربي وأن الأمر يقتضي المرور على مدريد بأسبانيا لمتابعة شئون المقر هناك وكتب الرجل مذكرته وقدمت إلى علي الفراس الذي رفعها إلى طه يس رمضان فوافق على الفور ، وإمعانا في تضليل أجهزة الأمن العراقية طلبت من علي الفراس أن يكلف ضابط أمن المكتب بأن يستخرج لي تأشيرة دخول إلى الكويت لزيارة بعض أقاربي هناك في طريق عودتي إلى بغداد ، وتولى ضابط الأمن هذه المهمة كما حجز المكتب لي ولكمال زايد تذكرتين مفتوحتين ؛ يسافر كمال زايد بموجبها إلى مدريد وأمر أنا على الجزائر لافتتاح فرع للاتحاد هناك وعلى الدار البيضاء

للقاء مع قيادات الاتحاد الوطني لطلبة المغرب ثم ألحق به في مدريد ونعود معا إلى الكويت لنصل إلى بغداد بالطريق البري ، هكذا حددنا مسارات الرحلة وأبلغنا بها مكتب مصر وإمعانا في تضليلهم كتبت مذكرتين إحداهما لتطوير العمل في إذاعة صوت مصر العروبة وتتكون من خمس عشرة نقطة والأخرى تتعلق بتطوير العمل في فرع اتحاد الشباب ببغداد وتتكون من عشرين نقطة ورفقتهما إلى علي الفراس الذي أشر عليهما « للتنفيذ بعد عودته » .

وفي يوم السفر ذهبت إلى مكتب مصر وسألت علي الفراس وعبدالجبار جاسم ورافع الكبيسي عما يحتاجون إليه من الخارج ومررت على ضابط الأمن ليحدد لي من سيرافقني كالعادة حتى باب الطائرة وحين رجاني أن أسافر هذه المرة دون مرافق لانشغال عناصر الأمن بالمكتب افتعلت الغضب وأبديت إصرارا على أن يرافقني واحد منهم فحدد لي أحد مساعديه .

كان مسكني مليئا بالأمتعة والأجهزة والأثاثات وكان قراري أن يظل كل شيء في مكانه وألا أحمل معي غير حقيبة واحدة ، لهذا تركت معظم ملابسي أيضا وأغلقت باب الشقة ووضعت « القفل » عليه كالعادة عند السفر ونبهت على الحارس أن يتنبه أثناء غيابي وحددت له مدة الرحلة بأسبوعين وركبت سيارة القيادة القومية لآخر مرة وكان يقودها في العادة رجل أمن ومررت على كمال زايد فأخذته معي إلى المطار وأنجز مساعد ضابط أمن مكتب مصر كل الإجراءات وأصبحت في الطائرة .

كنت أحمل جواز سفر عراقيا منذ انتهت صلاحية جواز سفري المصري لهذا كان أخطر ما أخشاه أن يكشف أحد أفراد الأمن في المطار أنني أحمل هذه المرة جواز سفري المصري أيضا لكن حقيبتي في العادة لا تتعرض للتفتيش وحين أقلعت الطائرة أحسست أن الجزء الأكبر في رحلة الهروب قد انتهى ومر بسلام لكنني كنت أدرك أن الخطة لا ينبغي أن تكشف حتى أصل إلى مصر فأنا أعلم الناس بأن أيادي البعثيين طويلة ومنظماتهم وعملاءهم في كل مكان ورغم ذلك ففور أن أصبحت فوق السحاب انفلت لساني ورويت لكمال زايد الخطة من أولها إلى آخرها وقلت

له إنني عائد إلى مصر وإنني أشعر الآن أنني طليق وحر بعد خمسة أعوام من الاعتقال المرير داخل أسوار البعث وبهت كمال زايد لكنه كان سعيدا غاية السعادة بما سمع. كانت مخاطرة أن أحكي له ونحن لا نزال في طائرة عراقية ولكن معادن الناس تبدو واضحة من النظرة الأولى والتعامل الأول وكان كمال من نوع الرجال الذين يثق الإنسان فيهم بغير تحفظات.

حطت الطائرة في مطار روما فنزلت وبقي كمال ليواصل إلى مدريد وبدلا من أن أتجه إلى الجزائر كما كان مقررا حجزت من المطار الإيطالى إلى الدار البيضاء في المغرب وهناك أوصلتني سيارة أجرة إلى فندق الدار البيضاء وهو أفضل فنادق المدينة فحللت به حتى أرتب للعودة إلى مصر.

اتصلت بشقيقي في القاهرة بعد أن حجزت على طائرة الخطوط الجوية المغربية إلى القاهرة وحددت له موعد الوصول بعد ثلاثة أيام وطوال هذه الأيام كنت لاأزال قلقا خائفا من أن يحدث شيء ما يعيدني إلى العراق مرة أخرى خاصة أنني أحمل جواز سفر كصحفي عراقي وكان أكثر ما يزعجني أن يكون التفتيش في مطار الدار البيضاء دقيقا فيكتشفون أنني أحمل وثيقتي سفر لكن كل شيء كان يمضي على ما يرام.

وأصبحت في الطائرة المغربية متوجها إلى القاهرة وما أن أصبحت الطائرة فوق السحاب حتى مر أمام عيني شريط الذكريات المرة. صور الذين أعدموا والذين اعتقلوا وعذبوا والذين سيحل دورهم في مسلسل إرهاب البعث الذي لا ينتهي. واستحضرت في مخيلتي كل هؤلاء المسئولين الذين يخشون من كل شيء ويخشون من بعضهم البعض هؤلاء الجهلة الذين يتصورون أنهم سيقودون العالم كله ذات يوم، وتذكرت صدام حسين ذلك المتهور المتعطش للدم الحاقد على كل ما هو عربي وإسلامي وسرحت بخيالي إلى عباقرة مكتب مصر حين يعلمون أن الرجل الذي أعدوه لقيادة البعث المصري رفض قيادتهم وبعثهم واختار مصر وأن رجل المهمات الصعبة كما كان يحلو لعلي الفراس أن يداعب غروري ركب الصعب وعاد إلى بلده وتذكرت ثامر الجبوري الذي كان يدعي الفطنة حين يعلم أنه مجرد مدع

فاقد لأي قدر من الفطنة .

كنت أعلم مقدما أنهم سينكسون رءوسهم حين يعلمون وسيعقدون على الفور محاكمة عاجلة وسيكون الحكم بطبيعة الحال هو الإعدام لكنني كنت واثقا أن أسوار مصر أعلى من قاماتهم جميعا .

وحين حطت الطائرة على أرض مطار القاهرة أخفيت جواز السفر العراقي وكأنني أخفي عاري وأخرجت جواز سفري المصري وكأنني أستعيد هويتي ومضيت شامخ الرأس إلى رجال الأمن المصريين وكنت على ثقة بأن ماسيحدث لي لا يساوي لحظة قلق هناك أو نظرة متغطرسة لعدنان الكبيسي ولا تهديدا مبطنا لثامر الجبوري .

وقضيت أسبوعا بين التحقيق في لاظوغلي وفي مبنى المخابرات العامة عدت بعده إلى أسرتي .

قلت في التحقيقات إنني أعتز بدوري في إذاعة صوت مصر العروبة وفي الاتحاد العام لطلاب وشباب مصر وفي أي نشاط آخر كان هدفه مقاومة كامب ديفيد أو الانفتاح الاقتصادي أو مجمل سياسات نظام السادات المستمرة بعده في عهد حسني مبارك .

لكنني قلت أيضا إنني أعتبر انضمامي إلى حزب البعث ودوري فيه وصمة عار أزلية قد لا تمحوها السنون .

وأعطيت وثيقة السفر العراقية لضابط الأمن المصري هدية متواضعة لقاء حسن معاملته !!

البعث والبعثيون مرة أخرى

بعد أن أنهيت بعض أيام الاحتجاز والتحقيق في هذه الجهة أو تلك من الجهات المعنية في مصر تصورت أنني قد طويت صفحة البعث في كتاب حياتي وأنه لم يعد باقيا لي من هذه الصفحة غير أن أقدم منها للشباب المصري والعربي العظة والعبرة وأن أحذر الأمة العربية كلها من هؤلاء الذين حولوا العراق كله إلى بؤرة للإرهاب ومركز للتآمر وشرعت في كتابة هذه المذكرات .

غير أن البعث فيما يبدو لم يكن مستعدا للتسليم بهذه السهولة بحق الإنسان العربي في أن يتحرر من قبضته ومكتب تنظيم مصر لم يكن يريد فيما أظن أن يرفع تقريره إلى طه يس رمضان معترفا بالعجز والفشل وبأن من أعدوه للمهام الصعبة رآها مهام قذرة وفر ، ومن صوروه بعثيا ظل طوال الوقت يفكر في وسيلة للهرب من البعث .

لهذا فلم تكد تمر أيام قليلة على إقامتي في مصر حتى رن جرس تليفوني وكان على الطرف الآخر بعثي مصري يطلب المقابلة لأمر هام . مدعيا أنه قد عاد إلى مصر ويريد أن يراني وكان بوسعي أن أفهم فكيف عرف هذا البعثي عنواني ورقم تليفوني إلا إذا كان موفدا منهم وكيف عرف أساسا أنني عدت إلى مصر ولم تكن علاقتي به هناك تسمح له بمتابعة أخباري والاهتمام بها واعتذرت عن أية مقابلة معه وكان هذا هو الذي أرسل للتثبت من وصولي إلى مصر بعد أن عاد كمال زايد وحده وأبلغهم أنني لم ألحق به في العاصمة الأسبانية .

وقررت أن أترك القاهرة كلها وأفر إلى قريتي في محافظة الغربية حتى تتضح الأمور ولم يكد يمر أسبوعان حتى اتصل بي بعثي آخر كان في هذه المرة هو ناجي عيد أحد أصدقائي المقربين وعضو اللجنة التنفيذية للاتحاد العام لطلاب وشباب مصر والذي رافقني في كل رحلاتي إلى الدول العربية والأوروبية وكنت في نفس الوقت

مسئوله الحزبي لكن العلاقة بيننا كانت قوية والثقة بيننا كانت كاملة وأعرف عنه كل شيء وأعرف أنه يكره البعث كما أكرهه ويحتقر البعثيين كما أحتقرهم .

لهذا قررت أن ألتقي به في قريتي مع بعض الاحتياطات رغم الثقة وبعض الحذر رغم العلاقة الطويلة الوطيدة فللبعث أساليبه ووسائله وللبعثيين قصص وحكايات في الغدر بأقرب الناس إليهم .

وتم اللقاء بيننا في أواخر يونية عام 1982 أي بعد وصولي بشهر واحد وأصبحت مرة أخرى وجها لوجه مع حزب البعث ولكنني الآن صاحب الأرض وصاحب القرار فلقد كان اللقاء في منزلي بالقرية وسط أهلي وبين شعب مصر ولا أثر فيه لعلي الفراس وثامر الجبوري وطه يس رمضان غير ماجاء ناجي عيد من أجله .

استمر اللقاء لأكثر من ست ساعات وكل مادار فيه على ما أعلم مسجل لدى أجهزة الأمن المصرية بدأه ناجي عيد بالسؤال عن سبب هروبي من العراق وكان صريحا أفصح صراحة أنه في مهمة حزبية وبتكليف من طه يس رمضان وبأنهم يريدون أن يعرفوا الأسباب وإذا كانت أسبابا شخصية فإن بوسعي أن أعود إلى العراق دون أية مخاوف ــ هكذا يعدون ــ وإذا كانت العودة صعبة أو مستحيلة فإنهم يعرضون على أن أظل في مصر على أن أواصل علاقتي بهم والعمل معهم خاصة في الاتحاد العام لطلاب وشباب مصر الذي أكد ناجي عيد أنه سينهار بدوني لأن الحزب لن يدعمه بعد أن فقد العنصر البعثي الوحيد الذي كان يعتمد عليه فيه .

وقال ناجي عيد إنهم يخيرونك بين كل ما تريده إلا إذا كان هذا الذي تريده هو أن تترك البعث .. يمكن أن تكون مراسلا لصحف ومجلات يمولونها وتصدر في أوربا ويمكن أن تذهب بنفسك إلى أوربا للعمل هناك على نفقتهم على أن تظل مسئولا بعثيا وعضوا بعثيا في الاتحاد العام لطلاب وشباب مصر .

وأفهمني ناجي عيد أن المكتب لم يرفع حتى الآن تقريره إلى طه يس رمضان بخصوص هربك إلى مصر لأنهم لا يفهمون سببا واحدا لأن يترك إنسان ، كل المجد ــ هكذا عبر ناجي ــ الذي كان فيه وكل الترف الذي كان يعيشه ويعود

خاصة أنك حسب معلوماتهم تركت خلفك كل شيء ولم تحول إلى مصر حتى ما يكفل القانون العراقي لك تحويله من المال .

وقال ناجي عيد إن علي الفراس كان يكلفه بالمهمة وهو يعض على أنامله ويكاد يبكي وأنه قال له بين ما قال « كنا جميعا متفقين على أنه لا يصلح لقيادة التنظيم المصري غيره ولا يصلح للمهام الإعلامية سواه ولا يمثلنا في مواجهه القوي السياسية في مصر إلا هو » .

تركت ناجي يتحدث على راحته لأفهم كل شيء ثم بدأت كلامي قلت له « اسمعني جيدا كلانا يمكن أن يفهم الآخر بسرعة ولقد سبق أن تحدثت معك في كل عواصم الدنيا عن جرائم هذا الحزب ونوعيته الرديئة وجهل القائمين عليه ودمويتهم والآن أبلغك حتى تنقل إليهم أنني لم أكن بعثيا ذات يوم وأن الاستمارة التي ملأتها كانت نتيجة الطوق الذي فرضه حولي المرحوم حسين طعمه وعدنان الكبيسي لكنني لم أعتبر نفسي بعثيا أبدا بل إن علاقتي بهم زادتني رفضا لأفكارهم وممارساتهم وكراهية لتآمرهم وإرهابهم وأنني فكرت دائما في الهرب وخططت دائما إلى أن نفذت » .

وقلت لناجي « ليس بوسعهم أن يحاسبوني بصفتي منتميا إنما عليهم أن يسألوا أنفسهم كيف حدث هذا الانتماء وليس من حقهم أن يسألوني لماذا لم أستقل فليس من حق البعثي كما تعرف أن يستقيل ولا يمكن لهم أن يدعوا أنه كان بوسعي أن أرحل قبل أن أصبح على هذا القدر من المستوى الحزبي والأهمية وقبل أن أتعرف على أسرارهم فهم أنفسهم الذين أبلغوني أنه لن يسمح لي بالسفر لعدة سنوات أخرى » !!

وقلت لناجي « قل لعلي الفراس إن البعثيين آخر من يتحدث عن القومية والعروبة فلو آمنوا بها لما عمل أحمد عباس صالح أحد كبار كتاب مصر تحت إشراف جاهل يدعى باصي قفطان ولما كان المسئول البعثي عن محمد عفيفي مطر حاصلا على الابتدائية ليس أكثر وأنهم لو أحصوا أعداد الذين أعدموا أو اعتقلوهم في عام واحد لشطبوا كلمة الحرية من بين أهدافهم وأن لا علاقة لهم من بعيد أو قريب

بالاشتراكية ويكفي أن يطلع علي الفراس نفسه على مادفعه مكتب مصر أثمانا لخمور تجرعوها وحفلات عابثة أقاموها بشكل يومي في وقت يئن فيه المواطن العراقي تحت وطأة أعباء الحرب مع إيران ويئن فيه المواطن العربي في مساحات شاسعة من الأرض العربية » .

قاطعني ناجي عيد قائلا « كل هذا أعرفه كما تعرفه وأنت تعرف ظروفي جيدا وتعلم أنني أنفذ مهمة وتكليفا وأمرا لايرد وأنني ينبغي أن أعود إلى العراق مجبرا ولست مخيرا فهل عرفت أنت ماذا يمكن أن يحدث بعد أن أكتب تقريرا عن فشل مهمتي في استعادتك إلى الحزب » .

قلت له « أعرف جيدا أنهم سيجتمعون لمحاكمتي وسيقررون اغتيالي أينما كنت وسيحاولون التنفيذ بأقصى سرعة » .

قال : « وهل أعددت عدتك واحتياطاتك لمخاطر من هذا النوع ؟ » قلت « قدر ما أستطيع سأحذر ولكن الموت مرة واحدة أفضل من أن يموت الإنسان كل يوم » .

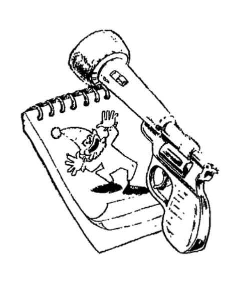
وقف ناجي عيد محاولا أن يمضي ليجهز ترتيبات العودة إلى العراق لكنني صممت أن نتناول معا طعام الغداء وعلى المائدة حكى لي ناجي ما حدث بعد رحيلي من العراق قال إنهم على وشك إغلاق الإذاعة وأنهم شكلوا لجنة جردت محتويات مسكني وفتشته بدقة ووضعت على أبوابه أقفالا أخرى ثم قال بصوت حزين « هل عرفت أنهم قتلوا كمال سرحان » .

كان كمال سرحان في مصر نقابيا عماليا بارزا معروفا في منطقة حلوان وفي أوساط القاهرة العمالية وذهب إلى هناك للعمل واصطادوه في فخ البعث وكان أحد الذين استعانت بهم إذاعة صوت مصر العروبة في تقديم برنامج عمالي وكمذيع أيضا وكان أحد أربعة مصريين أتموا دورة مدرسة الإعداد الحزبي وذهب كمال سرحان إلى جبهة القتال ضمن أحد القواطع رغم كبر سنه لكنهم بعد ذلك حاولوا أن يرسلوه مرة أخرى ضمن قاطع آخر فرفع تقريرا يعتذر فيه لسوء حالته الصحية ولكثرة أولاده الذين يقيمون معه في بغداد ويتعرضون في غيابه لمشاكل عديدة ولأنه كذلك أدى هذا التكليف الحزبي من قبل ورفض الحزب اعتذاراته كلها وهدده مسئوله باعتباره

متخاذلا .

ونما إلى علم أجهزة الأمن البعثية أن كمال سرحان يبيع بعض أثاثات مسكنه والأجهزة الكهربائية فيه وينوي الهرب وتأكد ثامر الجبوري من هذه المعلومات وبينما كان كمال سرحان يغادر منزله في طريقه إلى عمله في الاتحاد العام لنقابات عمال العراق داهمته سيارة مسرعة وأكد لي ناجي عيد أنه التقى بزوجة كمال سرحان حيث أبلغته رقم تلك السيارة .. كانت إحدي سيارات مكتب مصر .

ودعت ناجي عيد حتى أقرب مدينة لقريتي وتمنيت له السلامه والخلاص من مأزق البعث ومضى إلى نهايته .



إعدام ناجي عيد وحكايات قصيرة

كان ناجي عيد شابا مصريا سافر إلى العراق للعمل وحاول أن يلتحق هناك بالجامعة فأفهموه أن ذلك لا يجوز بغير انتمائه إلى حزب البعث فانتمى وأصبح طالبا بمعهد الفنون المسرحية وتخرج منه وعمل في أحد المسارح الحكومية في نهاية شارع السعدون وتزوج ممثلة عراقية معروفة وأنجب منها وحصل على الجنسية العراقية إلى جانب جنسيته المصرية .

وكنت قد تعرفت عليه ضمن من تعرفت عليهم من خلال العمل في التنظيم البعثي المصري واخترته ضمن الشباب الذين حضروا المؤتمر التأسيسي للاتحاد العام لطلاب وشباب مصر وانتخب معي عضوا في اللجنة التنفيذية العليا وزكاه لدى الناصريين كون شقيقه الدكتور حسن عيد المدرس بجامعة الإسكندرية أحد قيادات منظمة الشباب في السابق وارتبط ناجي عيد بي ارتباطا وثيقا وسافر معي إلى عواصم عربية وأوروبية عديدة ضمن مهام الاتحاد ولهذا اختاره الحزب لمهمة التفاوض معي للعودة إلى العراق أو للعمل في إطار أهداف البعث من مصر .

حين عاد ناجي عيد إلى العراق كتب تقريرا شاملا سلمه إلى علي الفراس وبناء على هذا التقرير اجتمع مكتب مصر برئاسة طه يس رمضان وتدارس ما جاء بالتقرير وقرر اعتبارى خائنا للحزب وحكم بإعدامي وأرسل الحكم إلى الجهات المعنية بالتنفيذ .

حضر ناجي عيد هذا الاجتماع لمناقشته في التقرير وسمع الحكم وفي اليوم التالي التقي بمصري كان يعرف أنه على وشك مغادرة العراق إلى مصر وكتب له ورقة دون إمضاء قال فيها جملة واحدة : « اجتمع المكتب برئاسة الحرزاوى وقرر اغتيالك فاحترس » ووضع الورقة في مظروف وكلفه بمقابلتي وتسليمها لي بعد أن أعطاه

رقم تليفوني في القاهرة . ومن باب الاحتياط أرسلت من تسلم الخطاب وفهمت ما فيه وأدركت أن ناجي عيد مصري صميم وإنسان بكل معنى من معاني الإنسانية .

وبعد شهر واحد حدثني تليفونيا أحد البعثيين المصريين وطلب مقابلتي لأمر هام ورفضت طلبه رغم معرفتي السابقة به فقال لي : « كنت أريد أن أعزيك في ناجي عيد » وقابلته في مدينة الزقازيق بعد أن حددت له الموعد والمكان لكنه لم يكن يملك أية معلومات غير أن نفس السيارة التي قضت على كمال سرحان أجهزت أيضا على ناجي وبنفس الكيفية .

* * *

بعد تحسن العلاقات المصرية العراقية امتلأت القاهرة بعناصر مكتب تنظيم مصر الذين أصبح معظمهم ضمن منتسبي السفارة العراقية ، وفي ندوة عقدت في نقابة الصحفيين المصريين حول الحرب العراقية الإيرانية وأدارها الأساتذه أحمد حمروش ويحيى الجمل واللواء طلعت مسلم اكتشفت أن العراقيين قد نقلوا مكتب مصر إلى القاهرة أو هكذا بدا لي فلقد وجدت في قاعة الندوة عبدالجبار جاسم وباصي قفطان وخالد عبدالسلام وآخرين من هؤلاء الذين كنت أعرفهم جيدا .

وفي نهاية الندوة حدثت مشادة كلامية بيني وبين عبدالجبار جاسم حين ادعى أنني شاركتهم الحرب ضد إيران كمقاتل في الجبهة وليس من حقي بعد ذلك أن أهاجم موقفهم في هذه الحرب ورددت عليه بأنه لم يكن لي حق الرفض وأنني لو أطلقت رصاصة واحدة في هذه الحرب فإن اتجاهها لم يكن ممكنا إلا باتجاه المعتدين العراقيين ، وتطور النقاش بعد أن انتهت الندوة فقلت له بحدة : « ألستم قتلة ناجي عيد » وقال هو بحدة أشد وعصبية واضحة : « كان خائنا مثلك ألم يكن يعلم أنك سوف تخون وتهرب » !!

ولم يكن ناجي عيد يعلم شيئا على الإطلاق .

* * *

كنت أمر أمام دار الكتاب العراقي بالقرب من ميدان سليمان باشا وجدت أمامي باصي قفطان متجها إلى عمله في هذه الدار واستوقفني وصافحني ومد يده إلى علبة سجائري التي كانت ظاهرة في جيب « القميص » الذي ارتديه وأخذ سيجارة وأعادها إلى مكانها في حركة مقصودة وكأنه أراد أن يطمئنني من ناحيته ثم قال : « هل تعرف أنك سببت لنا جميعا مشاكل لاحصر لها وأن كل الذين عملوا معك أو ربطتهم بك علاقة تعرضوا لتحقيقات ومضايقات . وهل تعرف أن ذكية العطار كانت على وشك أن تعتقل » .

قلت له أنني إراها كل أسبوع على شاشة التليفزيون المصري تقدم رسالة العراق المصورة فابتسم وقال : « هذه حكاية طويلة ما رأيك في أن نلتقي في المساء في أي مكان تختاره أريد أن أحكي لك » .

وتركته مسرعا وأنا أسأله بسخرية : « ما هي أخبار ثامر الجبوري ؟ » .

* * *

وحين رشحت نفسي في انتخابات مجلس الشعب عام 1987 اكتشفت أن واحدا من سكان الدائرة التي رشحت نفسى بها يهاجمني بعنف وينشر عني إشاعات كاذبة ويتبع مسيرتي أينما ذهبت ويحرض الناس على عدم انتخابي بدعوى أنني شيوعي وملحد ولغير ذلك من أكاذيب وعندما اعتقلته أجهزة الأمن المصرية اكتشفت أنه كان يعمل ضمن تنظيم بعثي داخل مصر .

* * *

وبعد أن أصدرت كتابي عن الحرب العراقية الإيراينة عام 1987 اتصل بي شاب عراقي أكثر من مرة مؤكدا أنه ينتمي إلى المعارضة العراقية وأنه سيكون سعيدا لو التقى بي ، وعندما ظل يلح في طلبه قابلته في « جروبي » ميدان سليمان باشا ولكن مع الاحتياط والحذر وبقيت أشك في هذا الرجل وأحذر منه وأهرب من مطارداته وإلحاحه على مقابلتي حتى التقيته في معتقل طرة وزنازين لاظوغلي متهما معي بالعداء لصدام حسين وظل عبد الأمير الربيعي وهذا هو اسمه يبكي حتى فقد عقله .

لم تكن مشكلة هذا العراقي الأساسية أنه معتقل و لم يكن خوفه وفزعه بسبب ضباط الأمن المصريين رغم قسوتهم معه لكن مشكلة الزبيعي كانت تتلحض في أن الصحف المصرية نشرت اسمه وصوره والاتهام الموجه له على صدر صفحاتها وكان خوفه وفزعه هو على أسرته وأهله في العراق إذ كان واثقا أنهم سوف يعدمون حتى آخر رجل وآخر امرأة أيضا .

* * *

وبعد أن أصدرت هذا الكتاب أيضا وضمنته حقائق هذه الحرب العبثية وجرائم صدام حسين في إيران وفي العراق كذلك كنت كلما التقيت مصريا يعرفني قبلني شاكرا وممتنا ومهنئا وترك واحد من هؤلاء سيارته وسط ميدان عام وجرى نحوي واحتضنني وعاد إلى سيارته مرة أخرى ووصلتني على عنوان المطبعة التي أصدرت الكتاب منها رسائل عديدة يؤيد مرسلوها كل ما جاء في هذه الدراسة من حقائق وأسرار .

وكان معظم هؤلاء بعثيين سابقين عرفوني هناك في سنوات الأسر الكئيبة .

وقال أحدهم في رسالة مكتوبة : « كنا نشعر في العراق بأزمتك دون أن تتحدث عنها ونحس بأحاسيسك دون أن تعبر عنها وكنا نتمنى لك الخلاص من قبضه هؤلاء الأوغاد » .

وحين زرت كمال زايد في مكتبه بمدينة المنصورة وتذكرنا معا حكايات البعث والاتحاد العام لطلاب وشباب مصر قال لي إن أسعد. لحظات حياته حين تأكد أنني وصلت إلى مصر وأبلغني ما قاله له علي الفراس وهو يودعه لآخر مرة عائدا إلى القاهرة :

« أبلغ صديقك أن أيدينا ستطوله ذات يوم وفي أي مكان يكون » .

* * *

وذات يوم سألني أحد أقاربي إن كان صحيحا ما أشيع عن أن الممثل المصري عبدالغني قمر مات على أيدي العراقيين مقتولا في أحد شوارع بغداد وأكدت له أن هذا الرجل هو المصري الوحيد الذي مات أمام عيني بسبب هبوط مفاجئ في القلب والوحيد من الذين عرفتهم عن قرب وتأكدت بشكل كامل من أنه مات بشكل طبيعي وسألني بجدية ودهشة .

« وهل هناك في العراق من يموت بشكل طبيعي !!! ؟ » .



شخصيات ومواقف

أحمد عز الدين

قال لي فاضل الشاهر إنه عرف أحمد عز الدين في القاهرة شابا تخرج في كلية الزراعه يهوى الشعر ويحضر ندواته باستمرار وكان في ذات الوقت أحد العناصر الشابة في التنظيم الطليعي والاتحاد الاشتراكي وإنه من هذا الموقع قدم خدمات مهمة للسفارة العراقية في بداية السبعينيات وإنه كان تواقا للعمل في الإعلام العراقي وقال أيضا إنه استطاع أن يقنع رئيس مؤسسة الإذاعة والتليفزيون بأن يوفر له عملا في إذاعة صوت الجماهير وأرسله إلى بغداد لكن المخابرات العراقية رفضت أن تسمح له بدخول المؤسسة لأسباب قدرتها واعتمدت في الأساس على نوعية علاقته بالملحقية الثقافية العراقية في القاهرة لكنه استطاع أن يذلل كل هذه العقبات وعلى ضمانته الشخصية .

وقال فاضل الشاهر : « إن أحمد عز الدين طموح أكثر مما ينبغي وإنه عندما علم أن إذاعة مصر ستفتتح في العراق سارع إلى أحمد عباس صالح حيث ذكاه لدى المسئولين وبرجوع القيادة إليّ أبديت موافقتي على عمله مؤقتا حتى نتمكن من ترتيب أمور هذه الإذاعة لكنه تصور أن بوسعه أن يتولى لي إدارة عمل مهم برغم أنه ليس بعثيا وبرغم أنه أحد العناصر التي لم نفكر في تجنيدها داخل الحزب أبدا » .

كان أحمد عز الدين هو زوج السيدة زينب منتصر شقيقة الممثلة المعروفة سهير المرشدي وكانت السيدة سهير المرشدي قد قدمت مع زوجها المخرج المعروف كرم مطاوع للعمل في العراق حيث عينا في وزارة الإعلام العراقية ومنحا مسكنا لائقا وقدما أعمالا فنية للتليفزيون العراقي خاصة تلك الأعمال التي استهدفت الدعاية لصدام حسين والإشادة بدوره « في ردع الثورة الإيرانية وحماية البوابة الشرقية للوطن

العربي » كما كانوا يدعون لكن أهم ما قدمه كرم مطاوع في العراق كان هو فيلما سينمائيا بعنوان « العم مطاوع » واشترك فيه أحمد عز الدين بصوته وبشعره وكان فيلما مصريا شارك فيه ممثلون مصريون عديدون قدموا لهذا الغرض وأدى الممثلون العراقيون أدوارهم فيه باللهجة المصرية وكان الفيلم أول عمل سينمائي ضد الصلح مع إسرائيل ، وكان لكرم مطاوع دور مهم في حماية أحمد عز الدين الذي أصبح منذ أقيل من إذاعة صوت مصر العروبة شخصا غير مرغوب فيه .

حضرت واقعة كان طرفها الأستاذ كرم مطاوع حين كنت أتسلم مرتبي من الموظفة المسئولة في وزارة الإعلام وكان المخرج المصري مصرا على أن تضيف له الموظفة إلى مرتبه « بدل سكن » وكانت الموظفة مندهشة فهذا ليس من صلاحيتها كما أن بدل السكن ليس من حقه . وحين دخلت لتسلم مرتبي سألني كرم مطاوع « هل تحصل على بدل سكن » قلت له « نعم » فثار ، لكني هدأت من روعه بأنه مادام حصل على مسكن فليس من حقه أن يحصل عل بدل مسكن وقال « لكنك حصلت أيضا على مسكن » فأفهمته أن مسكني من القيادة القومية لكن مسكنه على حساب وزارة الإعلام التي تدفع له مرتبه ويبدو أنه اقتنع فتسلم مرتبه ومضى .

اتصلت مرة بمنزل الأستاذ كرم مطاوع أسأل عن أحمد عز الدين لتسليمه خطابا وصله على مؤسسة الإذاعة والتليفريون وردت السيدة سهير المرشدي وقالت بطريقتها المميزة « عايز إيه تاني ؟ .. مش رفدته من الشغل خلاص ؟ » .

وحاول الأستاذ الفريد فرج المؤلف المسرحي المعروف في جلسة في صالة فندق بغداد أن يزيل الجفوة بيني وبينه لكن أحمد عز الدين قال وكأنه يهزر « دا ورث شغلي وذكية » وكان يقصد مذيعة التليفزيون ذكية العطار .

و لم أكن قد ورثت شيئا هناك إلا الهموم والقلق وكنت في كل الأحوال معجبا بكتابات أحمد عز الدين وشعره ومعجبا أيضا بموقفه من رفض استيلاء البعث على إذاعة صوت مصر العروبة .

أحمد عباس صالح

الأستاذ أحمد عباس صالح هو أحد كبار كتاب مصر وواحد من نجوم الصحافة في العهد الناصري وهو رئيس تحرير مجلة الكاتب التي كانت مع مجلة الطليعة التي سمح للماركسيين بإصدارها أهم المجلات السياسية حينئذ وله عدة مؤلفات هامة أبرزها هو كتابه « اليمين واليسار في الإسلام » الذي أصدره بتوجيه من جمال عبدالناصر ولاقى قبولا في أوساط المثقفين المصريين .

وفي عام 1974 أغلق المرحوم يوسف السباعي مجلة الكاتب حين عمل على تغيير هويتها من مجلة تواصل نهجها الناصري إلى مجلة تؤيد توجيهات نظام السادات وتروج لها وهو ما دفع الأستاذ أحمد عباس صالح إلى اللجوء إلى القضاء وكانت قضية مجلة الكاتب أهم القضايا الثقافية حينئذ ليس بسبب أهمية المجلة فحسب ، ولكن باعتبار أن إغلاقها هو تدشين لمرحلة جديدة في السياسة المصرية وفي الثقافة المصرية والإعلام الرسمي أيضا .

ويبدو أن الأستاذ أحمد عباس صالح كان قد يئس من الإقامة في مصر بعد أن ضيق رجال السادات الخناق عليه أمنيا وإعلاميا وأرادت السفارة العراقية أن تصطاد في الماء العكر وتمكن فاضل الشاهر من إقناع الكاتب المصري بالسفر إلى بغداد وكان الإعلام العراقي في هذه السنوات هزيلا في خبراته ووسائله ، وكان المكتب الثقافي برئاسة طارق عزيز مهتما للغاية بتطوير هذا الإعلام وتطعيمه بالخبرات المصرية .

وسافر الأستاذ أحمد عباس صالح واستقبل في بغداد استقبالا حافلا باعتباره كاتبا عربيا كبيرا وكان في الواقع أول كاتب ذي قيمة يصل إلى العراق ، لهذا تقرب إليه كبار المسئولين واهتم به صدام حسين شخصيا إلى حد كبير ، فلقد كان في حاجة

إلى كتاب يروجون لبطولته المزعومة ولعبقريته الفذة .

قال لي الأستاذ أحمد عباس صالح إنه صاحب فكرة رواية الأيام الطويلة وهي قصة حياة صدام حسين التي أنتجت فيلما سينمائيا أخرجه المخرج المصري توفيق صالح وقال إنه بهدف كتابة هذه الرواية كان يلتقي صدام حسين بشكل منتظم ليسجل قصة حياته على أشرطة لكن الأزمات القلبية التي فاجأته لم تسعفه لإنهاء العمل فخرجت الرواية باسم القصاص العراقي عبد الأمير معله .

وقال لي أحمد عباس صالح إن أزمة « الكاتب » وأزمات الغربة خاصة مع هؤلاء الجهلة المغرورين وفي هذا الجو العراقي المتوتر دائما المشبع بالقلق والمخاوف باستمرار قد أصابته بنوبات قلبية عديدة سافر على أثرها إلى لندن حيث أجرى له الطبيب المصري العالمي مجدي يعقوب جراحة في قلبه وقال إن ابنه هو الآخر لديه متاعب في القلب وإنه يضطر لهذه الأسباب إلى التردد على العاصمة البريطانية وإنه هناك يشعر بذاته ويتنفس أجواء أخرى من الحرية الحقة والأجواء الثقافية المنعشة .

ويعتبر الأستاذ أحمد عباس صالح الكاتب المصري الأول والأكثر حظوة لدى المسئولين العراقيين برغم أنه « ليس مريحا » كما وصفه عبد الجبار جاسم ذلك أن الرجل كان قد رفع شعارين وعاش في ظلهما داخل العراق كان شعاره الأول « لو كنا نبيع أنفسنا لبعنا في مصر » وكان شعاره الثاني « تدعموننا نعم وشكرا . تشتروننا لا ، ونأسف » هكذا قال لي في واحدة من لحظات عرضية هناك وهكذا قال لهم في أول اجتماع للجنة الإعلام المصري عقد برئاسته في مكتب تنظيم مصر .

لكن ظروف الرجل الصحية كانت ضاغطة ومكلفة وكان العراقيون مستعدين دائما لتحمل هذه التكاليف لكنهم كادوا أن يقتلوه كثيرا بجهلهم وقسوتهم فلم يكن قلبه مستعدا لتحمل أجوائهم القاسية المتوترة .

بعد مجزرة يوليو عام 1979 عاش أحمد عباس صالح أسوأ أيامه فلقد كان بينه وبين غانم عبدالجليل الذي أعدم في هذه الأحداث علاقة أسرية وطيدة وحزن على مقتله حزنا شديدا وقرر أن يزور أسرته لتقديم واجب العزاء وقال لي « إن زوجته

تلح عليه في ذلك وكذلك أولاده ولم يكن أحمد عباس صالح يعرف أن زيارة أسرة من يعدم في عرف البعث جريمة لا تغتفر .

الذي يعدم في حزب البعث يعتبر من لحظتها مجرما ولا يجوز أن يذكر اسمه بغير هذه الصفة ولا يجوز العزاء فيه أو زيارة أسرته ويعتبر من يقدم على ذلك آثما يعاقب بالفصل من الحزب إن كان حزبيا وبالفصل من العمل إن كان موظفا ويعتقل في كل الأحوال .

لكن الأستاذ أحمد عباس صالح كان مصرا على زيارة أسرة غانم عبدالجليل وهمس بذلك لي ولأحد المسئولين العراقيين وقامت الدنيا ولم تقعد !!

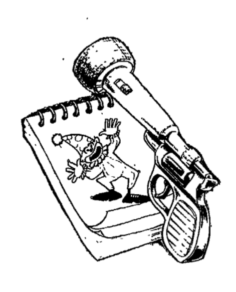
لأول مرة تعبس وجوه العراقيين في وجهه ويعتبر وجوده في العراق غير مرغوب فيه وقال له مسئول عراقي بمنتهى الوقاحة إن هذا التصرف قد يعني أن تكون شخصا غير مرغوب فيك .

وتحدثت مع الأستاذ أحمد عباس صالح فشرحت له خطورة ما أقدم عليه بالنسبة لهؤلاء الجهلة الموتورين ورجوته أن يعدل عن مطلبه ويبدو أنه زار مسئولا عراقيا كبيرا وقدم الترضية الكافية مبررا إلحاحه بأنها رغبة زوجته في زياره سيدة كانت صديقة لها وأن زوجة غانم عبدالجليل لم تكن ضمن المتآمرين !!

وعبر الرجل الأزمة لكنني كنت ألمح على وجهه في حينها كل مشاعر الحزن والقلق والكآبة ويتمزق قلبي خوفا عليه نظرا لظروفه الصحية التي لاتحتمل أزمات أخرى .

كان الأستاذ أحمد عباس صالح رقيقا مهذبا متواضعا مجاملا وكان يعرف أن ما يكتبه للإذاعة ــ على قلته ــ لابد أن يراجع مني أو من باصي قفطان وكان يفضل أن أراجعه له وكنت أخجل كثيرا من هذه المهمة المستحيلة فلقد كان الرجل بالنسبة لي أستاذا وأبا لكنه كان في كل مرة يقدم لي ما يكتب بطريقة تزيدني خجلا فكان أحيانا يقول « إيه رأيك في التعليق ده » وأحيانا أخرى « أريد أن تقرأ هذا التعليق

بنفسك في الأستوديو . صوتك معبر » وأحيانا ثالثة « شوف كده التعليق ده يمكن نسيت حاجة » وكنت أشعر أن الرجل يتمزق حين تضطره الظروف إلى تلك المواقف وكان لهذا السبب فيما يبدو مقلا في كتاباته وكان لهذه الأسباب كلها كثير السفر حتى ادعى ذات يوم أن طبيبه يرى ضرورة إقامته في لندن بشكل دائم وقابل لهذا الغرض كلا من طه يس رمضان وصدام حسين وألحق بالسفارة العراقية في لندن « الملحقية الثقافية » .



محمود السعدني

كان الأستاذ محمود السعدني مقيما في العراق حين تشكلت لجنة الإعلام لكنه لم يضم إليها ويبدو أنه لهذا السبب قرر ألا يتعامل معها عدا بعض الزيارات لمقرها وبعض العلاقات مع المسئولين عنها كإبداء رأي فيما يذاع أو اقتراح شيء مما يمكن أن يطور عمل الإذاعة وكان الرجل كعادته ظريفا وصاحب نكتة تلقائية وكان صريحا يحكي لك كل شيء حتى لقاءه مع الحبيب بورقيبة ومدحه له من أجل أن يساهم في علاج ابنته التي كانت قد أصيبت بما عوق حركتها مرورا بلقاءاته مع كل القادة العرب ولنفس الهدف .

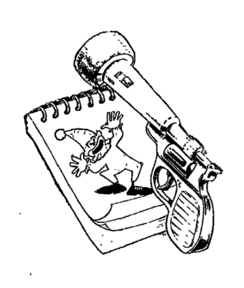
لكن محمود السعدني رغم كونه واحدا من ظرفاء هذا العصر كان كطبيعته متعاليا معتزا بنفسه إلى حد كبير لهذا فعندما قرر أن يذيع بعض كتاباته عبر صوت مصر العروبة تجاوز باصي قفطان وتجاوزني وتوجه إلى مكتب مصر واستأذنهم ووافقوا له .

وكان قد بدأ ينشر عمودا يوميا في صحيفة السياسة الكويتية تحت عنوان « ليس إلا محمود السعدني » ورأى أن يقرأه بنفسه في برنامج خاص به يحمل نفس العنوان وعندما وافق مكتب مصر جاء إلى الإذاعة ودخل إلى الاستوديو مباشرة وأمر المخرج أن يعد مقدمة لهذا البرنامج الجديد وجاء المخرج إلي وكنت مع باصي قفطان واستفسر عن الأمر فأمرناه ألا يسجل البرنامج وحين دخل الأستاذ السعدني يقرأ مادة البرنامج أخبره المخرج بأن لديه تعليمات بألا يسجل وغضب السعدني واتصل بمكتب مصر وجاء عبد الجبار جاسم غاضبا فكيف يوافق مكتب مصر ونرفض نحن .

كانت اليوميات التي جاء الأستاذ السعدني لتسجيلها تتحدث عن الرياضة في مصر والنادي الأهلي بالذات واللاعب المصري محمود الخطيب بشكل خاص وكانت فرصة لتبرير الموقف فبينما تلعثم باصي قفطان قلت أنا لعبد الجبار جاسم إن ما يريد

أن يذيعه محمود السعدني يمكن أن يسبب لنا أزمة في مصر التي ينقسم شعبها إلى أهلاوية وزملكاوية وحين نمدح الأهلي فإننا بذلك نخسر نصف سكان مصر « الزملكاوية » وفغر مسئول إعلام مكتب مصر فاه وقال « عندكم حق هذا الرجل ورطنا دون أن ندري » .

وسأل عن الأستاذ السعدني لإقناعه بما اقتنع ، به لكنه كان قد خرج من الإذاعة ولم يعد إليها بعد ذلك أبدا .. ولم تكن المسألة أهلى وزمالك لكنها كانت رد اعتبار ليس أكثر ولا أقل !!



عبدالغني قمر وعبدالمنعم الغزالي

كانت إذاعة صوت مصر العروبة قد تحولت إلى ثنائيات فلقد أصبح واضحا أن سعد التائه والمرحوم فتحي خليل يمثلان ثنائيا متفاهما ومتفقا وموحد الموقف وكذلك كنت مع محمد عفيفي مطر صديقين حميمين تحسب مواقف كل منا على الآخر باعتبارها مواقفه ، وكان عبدالمنعم الغزالي وحده ، وحين قدم الممثل المصري عبدالغني قمر من ليبيا وانضم إلى طاقم الإذاعة استأجرت له القيادة منزلا مجاورا لمنزل الغزالي فأصبحا ثنائيا متفاهما أيضا .

وحدث أنني لم أكن مقتنعا بما يذيعه عبدالغني قمر كل ليلة وكنت أرى أنه مجرد إسفاف يسيء للإذاعة وإلى العاملين بها وكان رأيي أن الرجل ممثل فقط ولا علاقة له بالإعلام والكتابة والإذاعة وكنت دائما أنتقد برنامجه وأحذف بعض الكلمات منه وكان عادة لا يلتزم داخل الاستوديو فيقرأ الكلمات المشطوبة .

كان عبدالغني قمر قد تزوج من سيدة شابة يقل عمرها من عمر بناته كثيرا وكان شديد الغيرة عليها ، لهذا كنت أرفض زيارته كلما زاره الآخرون ولهذه الأسباب كلها لم تكن علاقتي به طيبة لهذا كان كل منا متحفزا للآخر .

وذات ليلة شطبت نصف ماكتبه عبدالغني قمر ودخل إلى مكتبي غاضبا مهددا بأنه سينسحب من الإذاعة ووجه لي عبارات جارحة دفعتني إلى أن أقول له باللهجة المصرية « مع السلامة الباب يفوت جمل » .

ولست أعرف لماذا مضى عبدالمنعم الغزالي وراءه معلنا أنه لن يعود مرة أخرى إلا مع عبدالغني قمر .

ورأى عبدالجبار جاسم أن أزور الرجلين وأن أعتذر لعبدالغني قمر وكنت في الواقع أقدر فارق السن بيني وبينه فوافقت وعاد الرجلان مرة أخرى مع شرط

هو أن يكف عبدالغني قمر عن بعض ألفاظ برنامجه مثل أمنا الغولة « جيهان السادات » والحشاش « السادات » لكن الرجل توفي قبل أن ينفذ الشرط وكأنه لا يستطيع أن يغير منهجه الإعلامي !!

وكنت أنا والشاعر المصري محمد عفيفي مطر نهاجم عبدالمنعم الغزالي هو الآخر ونتهمه بالتكرار في أفكاره وبأن البرامج المخصصة له تأخذ وقتا طويلا بغير مبرر ويذكر أعضاء لجنة الإعلام أنه فى أحد اجتماعات اللجنة وبعد هجوم عنيف مني ضد برامجه استأذن الرجل إلى غرفة أخرى وضبطه عبدالجبار جاسم يبكي وكان السبب الحقيقي لهجومي ضده أن الرجل كان يحاول أن يكون بعثيا أكثر من البعثيين أنفسهم وأظنه الوحيد من بين الذين عملوا مع البعث وعرفوه على حقيقته الذي أصدر كتابا في مصر عن صدام حسين وقادسيته وكأن هذا الكتاب صادر عن وزارة الإعلام العراقية !!

حين انتقلت الإذاعة من مبنى المؤسسة العامة للإذاعة والتليفزيون العراقية إلى مقر لجنة الإعلام التابع لمكتب مصر حددت مكاتب لي ولأحمد عباس صالح ولهيكل غريب ولباصي قفطان دون أي كاتب آخر ، بمن في ذلك عبدالمنعم الغزالي وظل الرجل يجلس في مكتبة المقر ليكتب حتى أبلغه الأستاذ أحمد عباس صالح أن بوسعه أن يجلس في مكتبه وظل الرجل يناضل حتى أعطوه مكتب هيكل غريب .

وكنت أنا وعفيفي مطر في العادة نرفض أن نكتب ضد سوريا أو إيران ونعلل ذلك بأن إذاعات السادات تهاجمهما وليس من المصلحة أن نتفق مع هذه الإذاعات لكن عبدالمنعم الغزالي كان يكرس معظم برامجه للهجوم على سوريا وإيران وليبيا أيضا وبعد سنوات من العمل في إذاعة صوت مصر العروبة نسي البعثيون تحفظاتهم على شيوعية الغزالي تماما وكانوا على حق فلقد كان آخر العائدين إلى مصر وآخر عربة يمكن أن تنفصل عن قطار صدام حسين أيضا !!

قال له المرحوم فتحي خليل على باب مستشفى بغداد بعد زيارة لسعد زغلول فؤاد حين كان مريضا بين الحياة والموت « تذكر أنك كنت مسئولي في الحزب الشيوعي !! وأنك ينبغي أن تكون قدوة لي » .

ومات فتحي خليل وبقي القدوة !!

صافي ناز كاظم

كانت السيدة صافي ناز كاظم هي سيدة المواقف الصعبة في العراق والمواقف الغريبة أيضا ، فهي التي حولت اجتماع الصحفيين في وكالة الأنباء العراقية إلى خناقة على الطريقة المصرية وهي التي أصرت على إذاعة نشيد الثورة الإيرانية بخناقة مماثلة وأذاعته بالفعل وهي التي أحضرت ابنتها وأصرت على أن ينقل الأثير صوتها إلى مصر بأي كلام أو بأي حديث !!

المهم أن تتكلم ابنتها أمام ميكرفون الإذاعة باعتبارها أصغر معتقلة في التاريخ المعاصر .

كانت تتحدث دائما عن فترات اعتقالها وتؤكد أنها اعتقلت وهي حامل حين كانت زوجة للشاعر الشيوعي أحمد فؤاد نجم واعتقلت ومعها هذه الطفلة ولم يكن عمرها قد تجاوز الشهور .

كانت هوايتها اليومية هي الهجوم على جمال عبدالناصر وكانت تستشيط غضبا كلما أذاعت صوت مصر العروبة موضوعا عن سنوات حكمه برؤية مؤيدة ولهذا كانت تكره أحمد عز الدين وأحمد عباس صالح ولم أستطع أن أحدد مشاعرها نحوي أبدا .

في هجوم كاسح لها على عبدالناصر قالت « كان علمانيا » وقلت لها « نعم كان علمانيا كما هو حال حزب البعث الذي انتميت إليه وأصبحت نصيرة فيه » واستشاطت غضبا مدعية وهي المثقفة أن حزب البعث ليس علمانيا فأكدت لها أن ما أقوله صحيح وأن بوسعها أن تسأل مسئولها وأن تبلغ الحزب أنني كمسئول حزبي أفهمتها أن البعث حزب علماني . كان الشاعر المصري أحمد عبدالمطعي حجازي موجودا ليلتها في مقر الإذاعة وأصرت أن نحتكم إليه وذهبنا إلى الرجل الذي أبدى

دهشته من أن مثقفة مصرية كبيرة لا تعرف أن حزب البعث حزب علماني لكنها وقد تأكدت فلقد أصرت على أنها لم تكن تعرف !!

حضرت صافي ناز كاظم معي ومع الشاعر المصري محمد عفيفي مطر والمخرج المصري إبراهيم عبدالجليل اجتماعا مع طه يس رمضان عضو القيادة القومية و لم تتكلم في شيء غير أن الإذاعة لا تزال تنحو نحوا ناصريا وأن عبدالناصر كان إرهابيا وطاغية . وكان طه يس رمضان لا يزال ضخم الجثة وكانت أزرار قميصه قد فكت وبدا كرشه بغير ما يستره وكنت أتابع حديث صافي ناز وكرش طه يس رمضان باشمئزاز واضح !! لكن طه يس رمضان كان مشدوها لسيدة بدت طوال حديثها وكأن مهمتها الوحيدة في الحياة هي الثأر من رجل رحل بماله وما عليه وتبدو وكأنها تحارب طواحين الهواء .

كانت صافي ناز تعمل مدرسة في الجامعة وكانت قد تزوجت من مدرس لغة عربية عراقي وكانت تروج لأفكارها ضد الطاغية جمال عبدالناصر وهي منتمية إلى حزب الطاغية صدام حسين وتهاجم الشيوعية والشيوعيين وهي التي تغنت لها ولهم مع أحمد فؤاد نجم والشيخ إمام وعزة بلبع وكانت قد بدأت تتحدث عن الدين كمنهج وملاذ و لم تكن تدري أنها تجاوزت إشارات حمراء لا يسمح بالعبور بعدها فلما كانت الثورة الإيرانية راحت تؤيدها بحماس شديد وتذكر الناس أنها صافي ناز كاظم أصفهاني وتذكر البعث أيضا فتم فصلها من الحزب وطردها من العراق .

لكن الحقيقة أنها كانت سيدة جريئة وغريبة ، أيضا كانت الكاتبة المصرية الإسلامية في العراق اجتماعية وكأي سيدة مثقفة تشارك الرجال جلساتهم الثقافية وتتعامل معهم بغير تحفظات لا مبرر لها و لم يكن ثمة شيء غير عادي في تعاملها وحين زرتها في دار الزهراء للإعلام العربي رفضت أن تصافحني معتذرة بأنها لا تصافح الرجال ورفضت أن تتذكر سنوات بغداد أو أيام بغداد السوداء كما تصفها وسألتني على طريقتها : ألا تزال ناصريا ؟ .. فقلت لها امنحيني خبرتك لأعبر محنة الناصرية كما عبرت أنت محنة الشيوعية والبعث وكثيرا من المحن الأخرى !!

الإعلام العبثي .. البعثي

لعل أهم أسباب المأزق العربي الراهن في كل جوانبه ومآسيه أن بعض كتابنا ومفكرينا ومثقفينا قد احترفوا الكلمة وآثروا مصالحهم الخاصة المرتبطة بمصالح الحكام وأهوائهم وانفصلوا عن واقع الجماهير وأهدافها مؤثرين ترف الصفوة وبريق النجومية ومتع الحياة بعيدا عن أهوال المعاناة والنضال السياسي الحقيقي بين صفوف الجماهير ومن أجلها وأحيانا فإن هؤلاء قد تحولوا إلى أدوات للسلطة في مواجهة الجماهير المسحوقة تزيف وعيها وتضللها وتشل إرادتها ضمن مخططات السلطة وأهدافها .

وحين أكدت في كتابي عن الحرب العراقية الإيرانية أن هذا الإعلام العبثي كان أهم أسباب هذه الحرب وأحد الدوافع إليها دهش البعض لكن الحقيقة ظلت أن هذا الإعلام لعب دورا خطيرا في محاولته المستميتة لصنع كارثة صدام حسين أو لصنع صدام حسين الكارثة كما هو دور الإعلام العبثي دائما في صنع الطغاة .

ولقد حذرت دائما من أن هذا الإعلام العبثي فيما يتصل بالعراق والبعث وصدام حسين ليس هو الإعلام البعثي العراقي وصحفه وإذاعاته المسموعة والمرئية ومجلاته ونشراته الأخرى إنما هو أوسع من ذلك بكثير ؛ أقلام مأجورة منتشرة هنا وهناك في كل الصحف العربية وعلى امتداد العالم وصحف باعت نفسها للشيطان ومنابر عديدة تدار لحسابه .

وحين وصلت إلى بغداد وأصبحت في قلب المؤسسات الإعلامية العراقية والمكاتب الثقافية في القيادة القومية لحزب البعث فلقد اكتشفت أن الأهداف كلها شريرة وأن الوسائل في مجملها رخيصة وأن أموال البترول العراقي استطاعت أن تصنع إعلاما مضللا لبلد يفتقر إلى أية خبرات إعلامية حقيقية وأن مقدرات الشعب العراقي تهدر في محاولة لصنع زعيم ولتقديم صدام حسين إلى جماهير الأمة العربية والعالم على

أنه القائد الملهم والأمل الوحيد لمستقبل عربي مشرق وأنه البطل الذي لا يجارى والفارس الذي لا يبارى أو أنه كما يحلو لهم أن يصوروه عبدالناصر بغير سلبياته فهو نموذج للإنسانية ونبع للفكر والثقافة والعطاء .

تشعر وأنت في قلب أجهزة الإعلام العراقية أن ثمة أناسا ألقوا خلف ظهورهم كل قيمة أخلاقية وداسوا بأقدامهم كل معاني الشرف وقرروا أن يضللوا العرب والعالم وأن يزيفوا الوعي وأن يقلبوا الحقائق قلبا ، فدائما وفق المنهج البعثي فإن الغاية تبرر الوسائل برغم أن الغايات هي الأخرى شريرة وعدوانية .

خطه طارق عزيز .

كان طارق عزيز هو المهيمن على الإعلام والثقافة في العراق ولا يزال رغم دوره الآخر كرئيس للدبلوماسية العراقية وكان هو الذي يرسم الخطط ويحدد التوجهات ويشرف على التنفيذ وكان يتبنى بطبيعة الحال وجهة نظر صدام حسين التي تتلخص في أن الإعلام والتنظيمات الحزبية والجيش هي ثلاث ركائز أساسية لتحقيق هدف حزب البعث المحدد صراحة في الوصول إلى السلطة في كل الأقطار العربية وبمقتضى وجهة النظر هذه فإن الإعلام يمهد الأرض والتنظيم يعمل عليها بهدف إحداث الانقلابات والتغييرات الثورية الجذرية على امتداد الوطن والجيش يدعم التنظيمات أو يكون البديل لها إذا فشلت في أداء مهمتها أو ظلت تنظيمات ضعيفة لا طاقة لا بالمهمة التاريخية !! كما هو الحال في تنظيمات حزب البعث في أقطار الخليج العربي البترولية .

وكان طارق عزيز هو الذي ترجم هذه الاستراتيجية إعلاميا وثقافيا إلى نقطتي عمل أولاهما الترويج للحزب ونشر أفكاره وأهدافه وثانيتهما الترويج لصدام حسين وإبرازه كقائد عربي وحيد قادر على أن يعبر بالأمة العربية كلها مآزقها الراهنة وقادر على تحرير فلسطين دون غيره .

وكان طارق عزيز يرى أن التركيز ينبغي أن يكون على النقطه الثانية لأن

الدعاية للحزب باعتباره البعثي النموذج وأن إبراز نضاله هو إبراز لنضال البعث باعتباره المناضل البعثي الأول وأن نشر أفكار القائد وآرائه على نطاق واسع هو نشر لأفكار الحزب باعتبار أن فكر القائد هو خلاصة فكر الحزب ولم يخل الأمر بطبيعة الحال من بعض النفاق لرجل يستطيع أن يطيح برأس المنظر الأول طارق عزيز كما أطاح برءوس رفاق آخرين قادوا الإعلام العراقي من قبل بينهم على سبيل المثال جامد الجبوري وصلاح عمر علي وهما وزيرا إعلام بعثيان سابقان أو شقيق الكمالي وصالح مهدي عماش وهما شاعران شهيران وأعضاء قيادة قطرية في حزب البعث .

وكما قال طارق عزيز لمساعديه ذات يوم وكان بينهم فاضل الشاهر الملحق الثقافي العراقي في مصر في بداية السبعينيات إنه ينبغي أن نجعل العالم كله يتحدث عن صدام حسين إنسانيا ونضاليا وفكريا وينبغي أن نركز بالدرجة الأولي عليه فمن خلاله سيعرف الجميع كل شيء عن حزب البعث .

لهذا بدأت الخطة في بدايات انفراد صدام حسين بالسلطة عام 1979 بمحاولات لتشبيه صدام حسين بجمال عبدالناصر ثم تدرجت إلى الادعاء أن صدام حسين يتفوق على عبدالناصر بإمكانات أيديولوجية وتنظيمية ومادية لم تتح للزعيم المصري الراحل وتطورت الخطة إلى هجوم على جمال عبدالناصر وإبراز لسلبياته في مقابل مبالغة واضحة في تصوير صدام حسين كقائد تاريخي فذ وكبطل لا يقارن بغيره ومضت الخطة في طريقها لصناعة زعيم واختراع فارس لا يشق له غبار وأعطتهم الحرب العراقية الإيرانية فرصة فريدة خاصة في عامها الأول .

في البداية بادر المسئولون عن الأجهزة الإعلامية العراقية بإنتاج فيلم روائي يقدم البطل على الشاسة الكبيرة وجلس صدام حسين لساعات طويلة يسجل بعضا من تاريخ نضاله على أشرطة صغيرة ليعيد الكتاب صياغتها في عمل روائي كان بين المشتركين في فكرته الكاتب المصري أحمد عباس صالح لكن الرواية صدرت عن القصاص العراقي عبد الأمير معله باسم الأيام الطويلة ونقلها إلى السينما المخرج المصري توفيق صالح لكن العمل كله لم يحقق أهدافه لا في شكله الروائي ولا في صياغته

السينمائية[1] .

وعلى الشاشة الصغيرة أصبح صدام حسين الفتى الأول والنجم الوحيد فلا يكاد يمر يوم دون أن يكون نصيبه من مدة الإرسال ساعتين أو تزيد سواء في تسجيل لجولاته في شوارع بغداد أو زيارات لمدن وقرى العراق وفي منازل الأهالي وحتى داخل مطابخهم وغرف نومهم يربت في إنسانية بالغة على ظهور الشيوخ والمسنين ويقبل الأطفال ويطمئن على أحوالهم المعيشية ويفتح ثلاجاتهم ليتأكد بنفسه أن كل شيء على مايرام أو في تسجيل لأنشطته السياسية ولقاءاته العامة وخطبه المتكررة وابتدعت الصحافة تقليدا جديدا هو أن تتصدر صور الرئيس القائد صدر صفحات الصحف اليومية الثلاث الثورة والجمهورية وحتى جريدة « العراق » لسان حال الأكراد عدا مقالات ملتهبة عن القائد الفذ البطل الملهم والعراق الجديد عراق صدام حسين وعصر جديد هو بطبيعة الحال عصر صدام حسين .

محاولات مستميتة لتحويل الرجل إلى زعيم دولي فريد وقائد عربي وحيد وامتدت هذه المحاولات إلى المستوى الخارجي حيث نشطت الأقلام المرتبطة بالخط الإعلامي العراقي والمجلات والصحف الممولة من بغداد في إطار استكمال المهمة كما حددها طارق عزيز .

ذات يوم وصل إلى بغداد صحفي مصري مغمور كان يعمل في صحيفة كويتية والتقي بكاتب مصري كبير وثيق الصلة بالقيادة العراقية وطلب إليه أن يساعده في كتابة تحقيق مطول عن العراق في عهد صدام حسين ، وأمكن للصحفي المصري

---

(1) فشل هذا العمل قصصيا وسينمائيا ؛ لأنه بني على المبالغة في شجاعة وقدرات صدام حسين بشكل غير منطقي وعلى سبيل المثال تؤكد القصة ، وينقل الفيلم أن الرصاصة التي استقرت في ساق صدام حسين ظلت لمدة دون أن يتألم وحين أخرجها زميل له بطريقه بدائية لم يتأوه صدام حسين أو يتألم أبدا .

الشاب أن يلتقي بطارق عزيز وعاد إلى الكويت ليكتب تحقيقا مطولا في صفحة كاملة يمكن تلخيص مضمونه في أن صدام حسين هو جمال عبدالناصر بغير سلبياته وأنه إذا كانت معارك السويس عام 1956 هي التي فتحت آفاقا عالمية لعبدالناصر فإن صدام حسين هو حارس البوابة الشرقية للوطن العربي ضد الأطماع الفارسية وهو الأمل الباقي لتحرير فلسطين .

هل كانت هذه أفكار الصحفي المصري الشاب أم كانت أفكار طارق عزيز ؟ إذ لم يكد يمر أسبوعان حتى كتبت مجلة الوطن العربي التي تصدر في لندن بتمويل عراقي ويرأس تحريرها وليد أبو ظهر تحقيقا يعقد مقارنة بين صدام حسين وجمال عبدالناصر مؤكدا أن إمكانات صدام حسين الأيديولوجية والتنظيمية والقيادية تفوق إمكانات عبدالناصر بكثير وراح كاتب التحقيق يعدد سلبيات عبدالناصر وإيجابيات صدام حسين الذي سيحقق من بغداد ما فشل قائد ثورة يوليو في تحقيقه من مصر .

كنت حينئذ أحد المسئولين عن إذاعة صوت مصر العروبة التي تبث برامجها من بغداد وانتهزت فرصة سنحت وكتبت تعليقا أذيع ضمن برامج هذه الإذاعة هاجمت فيه محاولات التجاوز على مصر وعلى قائدها الراحل جمال عبدالناصر بشكل صريح وبرغم المحاذير وكانت الفرصة هي مقال كتبه في مجلة المستقبل التى تصدر في باريس صحفي يدعى إبراهيم سلامة هاجم فيه مصر هجوما عنيفا .

تجارة الكلمة وتخريب الضمير الإعلامي .

كان بين وسائل طارق عزيز لتنفيذ خطته الإعلامية ضرورة تجنيد أعداد من الصحفيين العرب خاصة المصريين والسيطرة على عدة صحف ومجلات عربية وإذاعات تصدر هنا وهناك إذ كانت وجهة نظر صدام حسين وطارق عزيز معا هي أن الإعلام العراقي يبقى قاصرا عن تلبية طموحات الحزب والقيادة .

كان شعارهم في البداية صحيفة في كل دولة وقلم في كل صحيفة وأصبح شعارهم مع مرور الوقت كل الصحف إن أمكن وكل الأقلام إذا كان ذلك متيسرا

ومزيد من الأبواق بقدر المستطاع وكان الهدف بطبيعة الحال هو صناعة الوهم وبيع الأكاذيب والإلحاح عليها وترسيخها حقائق في أذهان السذج على طريقة جوبلز وزير الدعاية النازي ولهذا صدرت الأوامر ورصدت الأموال بغير حساب وأعد السماسرة وتجار الكلمة بعناية فائقة .

كان صدام حسين يبدي إعجابه دائما بقدرة الإعلام المصري وظل يردد بغير انقطاع أن هذا الإعلام قادر على إعادة صياغة العقل العربي وصناعة المشاعر العربية لو اهتدى إلى منهج البعث وأيديولوجيته ؛ لهذا بدأت المهمة في مصر ومن مصر في بداية السبعينيات وأوفد فاضل الشاهر ملحقا ثقافيا في السفارة بالقاهرة .

كانت مصر حينئذ تشهد بدايات ردة على عصر جمال عبدالناصر وكان السادات يقود سياسات أخرى وتوجهات مغايرة وكان العشرات من الكتاب والصحفيين والمثقفين قد شرعوا أقلامهم في مواجهة هذه الردة وصمدت صحف ومجلات عديد في وجه المؤامرة وأقدم السادات على عدة إجراءات قمعية لتمهيد الطريق لتوجهاته الجديدة بعد أن تمكن من إزاحة كل العناصر المناوئة على قمة السلطة وصدرت القرارات بفصل العشرات من الكتاب والصحفيين من صحفهم ومجلاتهم وأغلقت مجلة الكاتب ثم مجلة الطليعة وبدأت حملة مطاردة وإرهاب في صفوف المثقفين المصريين الذين أصروا على مناهضة الردة والتصدي للمؤامرة .

وفي هذا الجو وجدت السفارة العراقية ضالتها المنشودة وواتت الظروف فاضل الشاهر الذي كان يقيم علاقات عديدة في أوساط المثقفين المصريين ليبدأ عمله كمورد للكتاب والصحفيين إلى بغداد بوعود وإغراءات لاحدود لها وهكذا توافد العشرات على العاصمة العراقية كان في مقدمتهم أحمد عباس صالح وعبدالرحمن الخميسي وأمير إسكندر ومحمود السعدني وفتحي خليل وسعد التائه وصافي ناز كاظم ومحمد عفيفي مطر وأحمد عبدالمعطي حجازي وعبدالمنعم الغزالي وغيرهم من الصحفيين الشبان ومخرجي السينما والتليفزيون والمسرح .

وهكذا دبت الحياة في إعلام البعث وأصبح قارئ صحيفة الثورة العراقية يجد أمامه مادة إعلامية جيدة ومقالات يمكن قراءتها وتحولت مجلة ألف باء إلى مجلة

حقيقية مقروءة وأصبحت مجلة آفاق عربية من أهم المجلات الثقافية العربية وأخذت صحيفة الجمهورية البغدادية شكل الصحف ومضمون الصحافة وسيذكر التاريخ أن فترة السبعينيات من هذا القرن هي البداية الحقيقية للإعلام العراقي رغم أن أجواء بغداد وقيود البعث وإرهابه تحد من أية إمكانية للإبداع وتحاصر الفكر وتقتل المواهب .

وفي نهاية السبعينيات نقل فاضل الشاهر إلى باريس وتوزع آخرون غيره على عواصم أخرى في مهام مماثلة واستطاعوا شراء صحف بكاملها ومجلات من الغلاف إلى الغلاف وإذاعات بأطقمها وكتاب برغم تاريخهم ، وكان بوسع القارئ أن يدرك أن مجلات عربية مهمه تصدر في باريس ولندن وإذاعات كذلك قد دخلت جميعا إلى دائرة النفوذ البعثي العراقي .

منح رئيس تحرير مجلة مطعما سياحيا في أهم شوارع بغداد وقصرا منيفا بها نظير أن تعمل مجلته التي تصدر في لندن لحساب البعث العراقي ، وحصلت إذاعة عربية تصدر من فرنسا على مليون دولار نظير نصف ساعة من إرسالها تخصص لصالح التوجهات الإعلامية العراقية وفقرة في نشرات أخبارها بصوت إعلامي بعثي يقول فيها ما يحلو له وأنشأ مركزا للدراسات الاستراتيجية في لندن وضع على رأسه أحد ضباط ثورة يوليو وأحد مساعدي جمال عبدالناصر لنفس الأهداف ، واستطاع فاضل الشاهر وآخرون أن يجندوا كتابا وصحفيين مصريين وعربا يقيمون في أوروبا مستغلين ظروفهم الصعبة هناك .

وإذا كان فاضل الشاهر قد مارس عملية شراء الأقلام « القطاعي » كما يقول التجار فإن سعد قاسم حمودي كان من هواة الشراء بالجملة !! كما يقول التجار أيضا ففي عام 1988 دعا الرجل ببراءة شديدة إلى ما أسماه مؤتمر الصحفيين المصريين المعارضين للسادات وانعقد المؤتمر في باريس بتمويل عراقي كامل وضم معظم الصحفيين والكتاب والمثقفين المصريين الذين كانوا يعارضون نظام السادات ، وفي آخر أيام المؤتمر فجر سعد قاسم حمودي مفاجأته وأعلن عن رغبة القيادة أن تدفع

لكل هؤلاء الكتاب والصحفيين مرتبات شهرية كبيرة تصلهم في محال إقامتهم وحين اعترض الأستاذ محمود أمين العالم طالبا أن يكون هذا الدعم عربيا وليس عراقيا سخر منه البعض وواجهوه بالسخط والغضب ، لأنه يعرقل مساعي العراق الإنسانية لمساعدة المناضلين المصريين في محنتهم لكن هؤلاء جميعا تبينوا بعد وقت قصير أن الهدف لم يكن إنسانيا أبدا إذ لم تصل الإعانات والمرتبات الشهرية إلا لهؤلاء الذين قبلوا دورا في فلك الإعلام العراقي ، بل إن أحد الصحفيين الذين سخروا من محمود أمين العالم فوُجئ بفصله من عمله في العراق وكان يعمل في صحيفة الثورة البغدادية وكانت أسرته تقيم معه في العاصمة العراقية وكان السبب هو أن معلومات أمنية وردت إلى بغداد أفادت أن الكاتب المصري الساخر يتصل بالقيادة الليبية في بدايات إنشاء مجلة 23 يوليو التي صدرت حينئذ .

كان محمود السعدني ونور السيد المتهم الأول حاليا(*) في قضية ثورة تنظيم مصر قد اتفقا على إصدار مجلة ناصرية معارضة مصرية في لندن توزع في الدول العربية والعالم وتعبر عن وجهة نظر المعارضة المصرية القومية لمنهج السادات السياسي والاقتصادي ويبدو أنهما اتصلا في البداية بطرابلس بليبيا بهدف تمويلها فقررت القيادة العراقية فصل السعدني من عمله في صحيفة الثورة العراقية ووقف راتبه رغم أن أسرته كانت تقيم في بغداد وتنفق من هذا الراتب ، وتوالت الضغوط على محمود السعدني لتحويل المجلة إلى مجلة بعثية حتى اشترى العراقيون بعض صفحاتها وكلف مكتب تنظيم مصر عددا من الصحفيين البعثيين المصريين والعراقيين لكتابة موضوعات هذه الصفحات ، وأعيد تعيين محمود السعدني بوزارة الإعلام العراقية براتب يزيد خمسين دينار عن راتبه في صحيفة الثورة ودفعت القيادة دعما للمجلة كان أول مبلغ فيه مائة ألف دولار وظلت تضغط على رئيس تحرير المجلة بدعوى أن الحس القومي ليس واضحا فيها وكان المقصود بطبيعة الحال هو الحس البعثي !!

(*) عام 1990

الإعلاميون العراقيون والإعلام البعثي

كان الإعلاميون العراقيون يبدون أقزاما إلى جانب الإعلاميين العرب والمصريين منهم بشكل خاص ، وكانت كتابات رؤساء تحرير الصحف العراقيين تبدو محدودة القيمة إذا قورنت بمقالات صحفيين مصريين شباب لا يزالون في بداية الطريق . وبدى ملحوظا أن هناك حساسيات وضغائن بدأت تنشأ بين الكتاب المصريين والمسئولين العراقيين عن الصحف التي يعملون بها فلم يكن رئيس تحرير « الأقلام » في مستوى الشاعر المصري محمد عفيفي مطر الذي كان يعمل مع زوجته بها . ولم يكن نصيف عواد في شهرة وخبرة سعد التائه ومحمود السعدني اللذين عملا معه في صحيفة الثورة ولم يجد فتحي خليل ولا الكاتب المصري الشاب أحمد عز الدين في صحيفة الجمهورية من يمكن اعتباره صحفيا عراقيا وحين أرادت القيادة تطوير مجلة ألف باء لتصبح مقروءة نقلت إليها المرحوم فتحي خليل ولهذا نمت الأحقاد في صدور الصحفيين العراقيين تجاه زملائهم المصريين ونشبت المشاحنات والمشاجرات وحدثت مشاكل عديدة كانت تحسم في كل الأحوال لصالح الكفاءات المصرية في وقت كانت القيادة العراقية قد قررت أن يكون لديها إعلام قوى وقادر .

غير أن هذا لم يكن راجعا إلى نقص في قدرة الإعلاميين العراقيين وخبراتهم فحسب إنما كان راجعا في سببه الرئيسي إلى طبيعة الظروف التي يعملون بها في دولة يحكمها البعث بإرهابه وبطشه وبعدم إيمانه بحرية الرأي ووسط جو مشحون بالخوف والقلق ومحموم بالقدرة على النفاق والكذب حوصرت مواهب العراقيين وارتعشت أقلامهم وكان هناك سبب آخر أكثر أهمية ؛ فلقد دفعت القيادة إلى ساحة الإعلام بعناصر لاتمت للإعلام وفنونه وأساليبه ومواهبه بصلة ولمجرد أنهم بعثيون يجيدون الانتهازية والنفاق ، أو بسبب علاقات هذه العناصر ببعثيين في القيادة العليا للحزب .

كانت المواهب الإعلامية العراقية لعلمها المسبق بطبيعة البعث ولمتابعتها لضحاياه من زملائهم تبدو محاصرة مرهقة وخائفة طوال الوقت ، وكان الإعلامي العراقي يعمل وعينه على إرضاء الحزب وعينه الأخرى على الرقيب السياسي والأمني

الذي يحاول دائما أن يستشف من هذه الكتابات والأعمال إخلاص هؤلاء للحزب وولاءهم للقيادة ولهذا فإن كاتبا عراقيا يدعى حسن العلوي كان يرأس تحرير مجلة ألف باء وظلت كتاباته بها أشبه بموضوعات الإنشاء لتلاميذ المرحلة الإعدادية حتى هرب إلى الكويت وعمل في صحفها فتبين الجميع أن ثمة كاتبا وثمة موهبة .

وكان المسئول الإعلامي لمكتب تنظيم مصر المدعو عبدالجبار جاسم موظف حسابات بالمؤسسة العامة للإذاعة والتليفزيون ولما رقي حزبيا إلى درجة كبيرة تفرغ للعمل عضوا في قيادة مكتب مصر وكلفه طه يس رمضان بالمسئولية الأولى عن الإعلام المصري ويعرف كل الصحفيين المصريين الذين تعاملوا معه أن الرجل لا يمتلك أي حس إعلامي ولا حتى القدرة على فهم مقال في صحيفة !!

وحين توليت مسئولية إذاعة صوت العروبة كان هناك موظف عراقي يعمل في إدارة الأخبار بمؤسسة الإذاعة والتليفزيون وكان مكلفا بجمع كل الأخبار التي ترد عن وكالات الأنباء عن مصر وتسليمها لنا مقابل أجر يحصل عليه و لم يكد يمر يوم دون أن تحدث بيني وبينه مشكلة بسبب جهله الشديد وعدم تمييزه لما تحتاجه إذاعة لها طبيعة صوت مصر العروبة من أخبار .. كان هذا الجاهل بالتحديد هو الذي أصبح مديرا لدائرة الأخبار بمؤسسة الإذاعة والتليفزيون العراقية وكان السبب هو ترقيته حزبيا بما يحتم ترقيته وظيفيا كذلك !

لهذا ظل الإعلام العراقي غبيا كما وصفه صدام حسين نفسه في اجتماع مع الإعلاميين الكويتيين قبل ثلاثة أعوام(*) وظل أثره على الشارع العراقي محدودا أو سلبيا أو ظل كما وصفه طارق عزيز ذات يوم في محاضرة له بمدرسة الإعداد الحزبي إعلاما لا علاقة له بالعقل أو المنطق أو الإعلام .

في أول يوم من أيام الحرب العراقية الإيرانية بدأ الإعلام العراقي يردد في حسم

(*) عام 1988

قاطع أن الطيران الإيراني أصبح أثرا بعد عين وفي اليوم التالي توالت طلعات الطيران الإيراني على بغداد بشكل كثيف وظل الإعلام العراقي يردد الأكذوبة نفسها على مدى أسبوعين سواء من خلال تعليقات الصحف أو برامج الإذاعة .

وفي واقعة أخرى نقل التليفزيون العراقي مشهدا من مجلس الشورى الإيراني يلخص مشادة حادة بين بعض النواب المعارضين وبعض النواب المؤيدين للحكم في إيران وعلى رأسهم هاشمي رفسنجاني رئيس مجلس الشورى الإيراني وقتها واحتدم الخلاف لدرجة أن عمامة رئيس المجلس سقطت من رأسه عدة مرات وأراد التليفزيون العراقي أن يسلي مشاهديه بمنظر هاشمي رفسنجاني والعمامة تسقط من رأسه لكن المشهد أثار ردود فعل معاكسة في الشارع العراقي الذي اكتشف أن نظام الخميني الذي يصوره الإعلام العراقي دكتاتوريا وقمعيا هو نظام يقبل المعارضة ولديه مجلس منتخب بدرجة من الحرية سمحت بمثل ما شاهدوه بينما يعرف العراقيون أن مجلسهم الوطني الذي كان يرأسه نعيم حداد قبل أن يقتل هو محض مؤسسة حزبية بعثية خالصة لا وجود فيها لمعارضة ولا أثر فيها لانتخاب حر .

واستيقظ العراقيون ذات يوم من أيام الشهور الأولى لحربهم مع إيران على نبأ تكرره الإذاعة كل خمس دقائق ويفيد أن الخميني قد مات مذهولا ومفجوعا من الانتصارات العراقية وصيغ الخبر بعبارات مستفزة وبكلمات غير لائقة واتضح أن الخبر عار عن الصحة وبرغم أن جميع وكالات الأنباء قد كذبته بعد ساعة واحدة إلا أن الصحف العراقية أبرزته على صدر صفحاتها في اليوم التالى .

وظلت الصحف والإذاعات العراقية تصف الإيرانيين بالمجوس حتى تبين لهم أن ذلك يسيء إلى مشاعر المسلمين عامة والشيعة العراقيين بشكل خاص وصدرت الأوامر بالعدول عن هذا الوصف .

ويذكر القارىء أن هذا الإعلام هو الذي ظل يبالغ في أحداث هذه الحرب ويحصي خسائر الإيرانيين بالآلاف بينما خسائر الجيش العراقي وفق بيانات هذا الإعلام لم تكن تتعدى عشرة أفراد حتى انتشرت بين الشعب العراقي نكتة برغم أن هذا

الشعب لا يجيد صناعة النكت إذ ردد العراقيون في جلساتهم الخاصة أن الجيش الإيراني يقصف المواقع العراقية بالشيكولاته . ولهذا أيضا تعثر هذا الإعلام وتخبط بعد عام واحد على بداية الحرب حين بدأت إيران تحقق انتصاراتها على جبهة القتال ابتداء من معركة عبادان .

ووفق استراتيجية طارق عزيز فلقد ظل هذا الإعلام على مدى هذه الحرب يتحدث عن بطولات صدام حسين وقادسيته ودارت الأغاني الوطنية كلها حول « أبو عدي وأبوقصي وأبو حلا » وكلها بطبيعة الحال مسميات مختلفة لصدام حسين وتجاهل هذا الإعلام تماما الشعب العراقي والجنود العراقيين إلا عندما كان يتحدث عن جنود صدام حسين أبناء القائد الفذ ولقد كانت تسمية هذه الحرب العبثية بقادسية صدام تلخيصا أمينا لتوجهات الإعلام العراقي في هذه المرحلة برمتها لإبراز صدام حسين وتضخيمه حتى تحول الرجل إلى بالون ضخم يوشك أن ينفجر .

هكذا كان الإعلام العراقي ولهذا كانت مهمة رجال طارق عزيز في تخريب الذمم والضمائر وشراء الأقلام وتأجير المحلات والصحف في سوق النخاسة الإعلامي الواسع .

* * *

الاتفاقيات والتحالفات الإعلامية

كان بين الوسائل العراقية الأخرى للسيطرة إعلاميا على العقل العربي ما يسمى بالاتفاقيات الإعلامية مع أحزاب المعارضة المصرية وهي اتفاقيات يلتزم فيها البعث العراقي بدعم هذه الأحزاب في إطار ما يسمى بعلاقة صداقة وتعاون سياسي وإعلامي وضمنها بطبيعة الحال أن تتجنب صحف هذه الأحزاب نشر ما يسيء إلى العراق أو البعث العراقي وأن تترجم هذه الصحف تلك الاتفاقات إعلاميا من خلال صحفها ونشراتها .

ولقد تابعت بعض هذه العلاقات من بغداد ورأيت بنفسي نائب رئيس حزب

معارض استقال حاليا من هذا الحزب وهو ينقل من بغداد إلى حزبه مليونين من الدولارات في إطار هذه الاتفاقيات التي كان ضمنها أيضا اتفاقية التحالف الموقعة بين طه يس رمضان عن حزب البعث العربي الاشتراكي وعبدالمجيد فريد رئيس حزب طليعة الاشتراكيين الناصريين وكان هذا الحزب قد أنشىء في الخارج وادعت قياداته أنه يمثل الناصريين المصريين وله وقواعد مهمة داخل مصر .

وفي كل الأوقات كانت السفارات العراقية خاصة في مصر تمارس نشاطها في تجنيد العشرات من الكتاب والصحفيين وكانت الطريقة المتبعة هي أن تكون عناصر هذه السفارة خاصة الملحقية الثقافية علاقات بهؤلاء ثم توجه لهم الدعوة لزيارة العراق حيث يستقبلون بحفاوة بالغة وتقام لهم الولائم والحفلات في أفخم الفنادق ثم تعقد الصفقات الإعلامية ويعودون محملين بالمال والهدايا والوعود وتتواصل العلاقة مرة أخرى عبر هذه السفارات .

قدم كاتب مصري ناصري شارك بدور مهم في المعركة الإعلامية التي دارت بين صلاح نصر والصحفي مصطفى أمين إلى بغداد وطلب إليه بعد الحفاوة والتكريم أن يكتب عدة مقالات ودراسات للإذاعة المصرية التي تبث من هناك وللصحف والمجلات العراقية وأبلغ أن له مبلغا من المال في خزينة كانت تصرف أجور العاملين في إذاعة صوت مصر العروبة ولما ذهب الكاتب المصري لاستلام المبلغ طلب إليه موظف الخزينة أن يوقع بالاستلام فعاد هلعا إلى مكتب تنظيم مصر « مقر اللجنة الإعلامية » يشكو من أن ذلك غير لائق وغير مأمون وذهبت معه إلى موظف الخزينة حيث تسلم المبلغ ووقعت للموظف نيابة عنه .

وجاء إلى بغداد كاتب شيوعي له مؤلفات تاريخية وأقيمت له حفلات عديدة ثم طلب إليه أن يعد حلقات لإذاعة صوت مصر العروبة عن الثورة العراقية ووعد بكتابها وإرسالها من مصر لكنه لم ينفذ أبدا ولا علم لي عما تقاضاه قبل أن يرحل وأعتقد أنه رفض أن يتقاضى شيئا كما أفهمني كاتب مصري كان يقيم معنا في بغداد !!

وجاء إذاعي مصري كبير إلى بغداد بدعوى حضور مؤتمر إعلامي للطفولة

وساهم في وضع دورة إذاعية لصوت مصر العروبة لكنه تقاضى عن هذا العمل مبلغا يفوق بكثير قيمة العمل الذي ساهم فيه ، وكان إذاعي مصري كبير آخر دائم التردد على بغداد لنفس الأغراض والأهداف .

وأعد كاتب ماركسي معروف ـــ أقام في باريس لفترة طويلة بعد إقامة في بغداد دامت لمدة سنين في منتصف السبعينيات ـــ كتابا اعتبر أهم ما صدر عن صدام حسين من كتب نظير ربع مليون دولار ولايزال هذا الكتاب يوزع من خلال السفارات العراقية ودور الكتب التابعة لها . وحمل سمير النجم في بداية عام 1981 حقيبة دولارات إلى مصر لدعم صحفيين من المعارضة المصرية وصفهم بأنهم أصدقاء للعراق ولحزب البعث .

ولم يقتصر الأمر على الصحفيين والكتاب والإذاعيين إنما تعداه إلى الفنانين المصريين ولهذا فإن الذي أخرج فيلما عن صدام حسين كان مصريا والذي أعد حلقات تليفزيونية عن قادسية صدام كان مصريا ومثل هذه الحلقات مع زوجته الممثلة المعروفة التي أقامت معه في بغداد لعدة سنوات وكان المفترض أن يكتب المؤلف المسرحي الشهير ألفريد فرج مسرحية حشدت لها إمكانات كبيرة تحمل اسم « واعروبتاه » لكن العمل تعثر حتى قتل السادات وعاد الكاتب المسرحي المصري إلى القاهرة وحين فكر المسئولون العراقيون في إنتاج فيلم عن القادسية رصدوا له عدة ملايين من الدولارات واستقدموا العشرات من كبار الممثلين والفنانين المصريين وعلى رأسهم المخرج الكبير صلاح أبو سيف لكن الفيلم على ضخامة إنتاجه لم يحقق أي إقبال جماهيري . وكان المخرج المصري الراحل إبراهيم عبدالجليل قد أقام في بغداد منذ عام 1971 وحتى وفاته منذ أربعة أعوام وساهم بجهد متميز في تطوير التليفزيون العراقي وأخرج عدة مسلسلات مهمة تعتبر فاتحة الإنتاج العراقي لهذا النوع من الأعمال الفنية .

وطبيعي أن ما كان يحدث بالنسبة للإعلاميين والفنانين المصريين كان يحدث أيضا لكل الإعلاميين العرب خاصة المتميزين منهم ضمن المهمة الحيوية التي رصدت

لها القيادة العراقية كل الإمكانات اللازمة وهي التمهيد للزحف البعثي على كل أفكار الوطن العربي وإبراز صدام حسين الذي يتحتم أن يقود هذا الوطن من أقصاه إلى أقصاه كما يحلم البعثيون ويخطط حزبهم .

عام 1978 وصل إلى بغداد الشاعر السورى نزار قباني بدعوة من وزارة الإعلام العراقية وحاولت بصفتي مسئولا عن إذاعة صوت مصر العروبة أن أسجل حوارا معه حول الأوضاع العربية بشكل عام وأوضاع مصر بشكل خاص بعد زيارة السادات للقدس وقابلته عدة مرات لهذا الهدف غير أنه كان يرفض في كل مرة لسبب مختلف عن السبب السابق فذات مرة ادعى أن خادمته مصرية وأنه يخشى أن تتعرض لمضايقات أمنية عندما تعود إلى مصر ومرة أخرى لأنه ضد الإذاعات السرية كما هاجمها في أشعاره وبعد أن يئست من جدوى المحاولات معه أبلغت فاضل الشاهر الذي وعدني بأن أجري الحديث معه بعد ثمان وأربعين ساعة بعدها بالفعل كان الشاعر العربي المعروف هو الذي يتصل بي مستعدا لإجراء الحوار وكنت قد قررت أن أعتذر له مرة لضيق الوقت ومرة لأن إذاعتنا سياسية وليست عاطفية !! كان فاضل الشاهر هو الذي تولى الاتفاق مع نزار قباني على أن يكتب مقالا أسبوعيا لمجلة الوطن العربي التي كانت تصدر في لندن بتمويل عراقي وعلى أن يكتب بعض الموضوعات الأخرى لمؤسسات إعلامية مختلفة مرتبطة بالعراق وكانت السيدة العراقية زوجة نزار قباني هي الوسيط في اتفاق صداقة بين البعث والشاعر الشهير إلى أن رحلت في حادث مروع حين دمر الشيعة الموالون لإيران في لبنان السفارة العراقية في بيروت .

وكان القصاص الأردني الراحل غالب هلسا أحد الذين أمكن ترويضهم بعد مشقة لكنه ظل غير راض عن نفسه وعن إقامته بين أنياب البعث كما كان يعبر عن مأساته وظل يهمس لأحد أصدقائه بأنه لم يندم في حياته إلا عندما دخل العراق برغم أنه عندما عاش في مصر اعتقل وعذب وطورد وعندما وصل إلى بغداد أقيمت له الحفلات والولائم ووفرت له القيادة كل وسائل الراحة والرفاهية .

وجدير بالذكر أن صدام حسين كان يتابع بنفسه النشاط الإعلامي وتوجهاته خاصة ما يتصل منه بنشاط الإعلاميين والفنانين العرب الذين كان يحفظ أسماءهم ويحاول أن يلتقي بهم ويسأل عن مشاكلهم ويطلب سرعة حلها فهؤلاء من وجهة نظره مقدمات فيالق البعث وجيوشه لكن الخطط الإعلامية وتنفيذها كانت مهمة المكتب الثقافي بالقيادة القومية وطارق عزيز تحديدا ويليه في هذه المهمة وزارة الإعلام التي تولاها خلال العشر سنوات الأخيرة كل من سعد قاسم حمودي ولطيف نصيف جاسم والأخير في الأصل مجرد حارس أمن ولا علاقة له بالإعلام في كل وسائله وفنونه .

* * *

نماذج مشرفة .

لا يعني ذلك بطبيعة الحال أن العراقيين وجدوا الكتاب والصحفيين والفنانين المصريين والعرب لقمة سائغة أو أن سيف صدام لم يجد من يقاومه منهم أو أن ذهبه لم يجد من يتعالى عليه ويأباه فلقد قدم العديد من الكتاب الشرفاء نماذج مشرفة وقاوموا بإباء في ظروف كانت تفرض عليهم الاستسلام لجبروت البعث وبطشه ولدولاراته أيضا وبينهم من مات كمدا كالفنان المصري عبدالغني قمر ومن مات قهرا أو اغتيالا كفتحي خليل ومن فر في أول فرصه أتيحت له كسعد زغلول فؤاد .

بينهم أيضا أحمد عباس صالح الذي رفع طوال فترة إقامته في العراق شعارا مهما « تدعموننا نعم فلطالما دعمناكم . تشتروننا لا فلسنا ممن يباع » وواجههم به في كل مأزق رغم المحاذير ورغم حالته الصحية التي كانت تقتضي نفقات باهظة للعلاج تحملها العراق على أمل أن ينحني الرجل وهو ما لم يحدث .

وكان بينهم فتحي خليل الذي كتب مقال « ثعلب لافونتين والحركة الوطنية المصرية » هاجم فيه محاولات البعث احتواء الحركة الوطنية المصرية ورموزها وكتابها وتعرض في ذلك لأهوال مات بسببها في ظروف ينبغي أن تكون مثار تحقيق

وبحث .

وبينهم كذلك السيدة صافي ناز كاظم التي رفضت توجهات البعث العلمانية واحتجت على حفل لفرقة باليه روسية دار حول بداية وقصة الخليقة واحتجت على عداء القيادة العراقية للثورة الإيرانية وعرضت نفسها لمخاطر عديدة رغم أنها كانت بعثية إلى أن فصلت من الحزب وطردت من العراق وبين هؤلاء كذلك الأستاذ محمود أمين العالم الذي تصدى في مؤتمر باريس عام 1978 لمخطط سعد قاسم حمودي الذي استهدف ربط الكتاب والصحفيين المعارضين في مصر وخارجها بعجلة البعث وبمخططاته وأهدافه .

نعم كان هناك شرفاء قاوموا ورفضوا وتحدوا رغم المخاطر والإغراءات لكن هناك في ذات الوقت عشرات سقطوا في فخ البعث واستسلموا بالكامل أو قبلوا بعض التنازلات . بين هؤلاء من تحرر في أقرب فرصة وبينهم من لا يزال بكل أسف أسير البعث وكلبه الوفي حتى بعد أن عاد إلى مصر واستقر في أمنها وأمانها .

وحتى بين الصحفيين والإعلاميين والفنانين العراقيين فإن هناك من رفض وقاوم وتحدى واعتقل وعذب أو قتل أو طورد واغتيل نذكر منهم على سبيل المثال لا الحصر أسعد الشبيبي وإحسان السامرائي ومؤنس الرزاز ومظفر النواب وعشرات غيرهم .

وليس الهدف على كل حال أن ندين أحدا أو نعد قوائم للشرفاء إنما الهدف هو أن يعرف المواطن العربي أن هناك بين كتابه وإعلامييه ونجومه من آثروا مصالحهم الخاصة وباعو ضمائرهم للشيطان وأن عليه حين يقرأ لهؤلاء كتاباتهم أو يتابع أعمالهم أن يعرف النوعيات والمقاصد والأهداف حتى لا يدخل في دائرة التيه والضلال التي رسمها البعث أو يسقط هو الآخر في مستنقعات هؤلاء الكتبة الكذبة .

* * *

صحف وصحافة

والصحف العراقية على اختلاف مسمياتها تكاد تكون نسخة واحدة فمن يقرأ « الثورة » « والجمهورية » « والعراق » لن يجد اختلافا يذكر خاصة في المادة السياسية والثقافية لهذه الصحف بما فيها المواد الإخبارية وسوف يكتشف أن توجهات الكتاب واحدة وأسلوبهم متشابه فليس للكاتب العراقي توجهات خاصة يمكن أن يعبر عنها إنما هي توجهات القيادة والمكتب الثقافي ووزارة الإعلام ورئيس التحرير وكل هؤلاء يعملون داخل أطر حزبية لا يجوز تعديها وثمة خطوط حمراء لا يجوز تجاوزها بحال . ورغم أن صحيفة العراق هي في الأصل صحيفة كردية فإنها وضعت في قبضة البعثيين ولا يسمح بالعمل فيها لكردي مالم يكن قد تخلى عن انتمائه العرقي وانتمى إلى حزب البعث ولو تحت وسائل القهر والإرهاب .

وتعرض محتويات هذه الصحف على رقيب بعثي ورقيب أمني قبل طباعتها بعد عرضها على رئيس التحرير الذي ينتمي هو الآخر لحزب البعث بطبيعة الحال بل والمفترض أن يكون حزبيا موثوقا فيه ويلاحظ القارىء التماثل التام بين هذه الصحف حتى في التبويب فأخبار الصفحة الأولى في كل هذه الصحف واحدة والموضوعات التي تركز عليها هذه الصحف خلال بضعة أيام هي ذاتها الموضوعات التي تحددها التوجيهات الحزبية والاختلاف الوحيد المسموح هو في الأخبار الفنية والموضوعات العلمية وإن كانت تخضع أيضا لوجهة نظر الرقابة .

كان المرحوم فتحي خليل يصف الإعلام العراقي بأنه إعلام « إن » و « الذي لاشك فيه » فمعظم مقالات الكتاب والصحفيين العراقيين هي عدة جمل متتاليه تبدأ بأداة النصب والتوكيد « إن » وبعبارة « والذي لاشك فيه » وتدور في معظمها حول الرئيس القائد والحزب القائد أو تهاجم خصومهما من أنظمة وأحزاب على امتداد الساحة العربية والعالمية .

وعندما أصبح في بغداد عدد كبير من الكتاب والصحفيين المصريين والتحق بعضهم بهذه الصحف أصبحت مقالاتهم إحدى العلامات المميزة لصحيفة عن أخرى

وبرغم أن هذه الكتابات كانت هي الأخرى خاضعة للرقابة والفحص والتمحيص غير أنها ظلت كتابات متميزة يهتم بها القارئ العراقي أكثر من غيرها من الكتابات ويشتري صحيفة بعينها لأن الكاتب المصري الذي يفضله يكتب بها .

ولنفس هذه الأسباب لم يكن المواطن العربي يرى برامج التليفزيون العراقي إلا في مواعيد المسلسلات والأفلام العربية ولم يتحدث الشارع العراقي عن مسلسلات عراقية إلا بعد أن أخرج المرحوم إبراهيم عبدالجليل عدة مسلسلات بدأها بقصة « الذئب وعيون المدينة » وكذلك ظلت الأغاني المصرية والعربية والعراقية المميزة هي ما يدير المستمع العراقي مؤشر الراديو بحثا عنها .

ويعرف المواطن العراقي أن إعلامه أشهر إعلام يقلب الحقائق ويلوي عنقها ولهذا فهم يلثون وراء نشرات الأخبار في إذاعات لندن وصوت أمريكا ومونت كارلو رغم محاولات التشويش التي تتقنها الأجهزة العراقية في محاولة لمنع الحقيقة عن أذن المستمع العراقي وهكذا أيضا فإن قوائم الممنوعات من الصحف والمجلات والكتب التي تصدر خارج العراق طويلة ومتعددة ولا يسمح بعبورها الحدود بأية وسيلة كانت حتى ولو جاءت في حوزة قادم من خارج البلاد حيث يتعرض لتفتيش دقيق وتتعرض الصحف والمجلات والكتب التي معه للمصادرة .

ويسخر المواطن العراقي في جلساته الخاصة من إعلامه ويتندر بأن العمالة لأمريكا هي الاتهام الجاهز ضد خصوم البعث حتى ولو كان هؤلاء الخصوم من أصدقاء الاتحاد السوفييتي وأعداء أمريكا التقليديين ، وهو ما كان يحدث في الهجوم على الرئيس الليبي معمر القذافي برغم قصة صراعه الطويلة المريرة ضد أمريكا وحتى في الهجوم على النظام الإيراني حين كان هذا النظام في ذروة صراعه ضد الولايات المتحدة الأمريكية إبان ما عرف بأزمه الرهائن التي صورها الإعلام العراقي تمثيلية تحاول بها الثورة الإيرانية التعتيم على علاقاتها السرية بواشنطن !!

ويسخر المواطن العراقي كذلك من قدرة هذا الإعلام على تبديل المواقف بسرعة حسبما تتغير علاقات القيادة وتوجهاتها وبين هذه التقلبات الحادة ما حدث في أعقاب زيارة السادات للقدس عندما توثقت العلاقات العراقية السورية وأصبح

حافظ الأسد في الإعلام العراقي عربيا شريفا ومناضلا مخلصا وكان من قبل عميلا حاقدا ومتآمرا ثم انقلب عليه الإعلام العراقي مرة أخرى فى أعقاب القطيعة التي حدثت في يوليو عام 1979 حين اتهمه صدام حسين بدعم المتآمرين عليه من مجموعة أحمد حسن البكر وتمويلهم . وحدث ذلك أيضا عدة مرات تجاه الملك حسين وياسر عرفات وحسني مبارك وغيرهم .

وتحدث هذه التقلبات الإعلامية أيضا ضد القيادات البعثية التي تختلف مع صدام حسين فتتحول بين ليلة وضحاها إلى عناصر متآمرة وتوصف بأبشع النعوت وأحقرها حدث ذلك لعدنان حسين ومحمد عايش ومنيف الرزاز ونعيم حداد وعشرات غيرهم ومن الطريف أن هذا هو ما يحدث للفنان ممثلا كان أو مطربا فعندما غنت وردة لأنور السادات في أعقاب مبادرته هاجموها كما لو كانت قائدا سياسيا سقط أو أيديولوجيا كبيرا انحرف وخان وهو ما حدث أيضا لمحمد عبدالوهاب وغيره من الفنانين الذين قدموا أعمالا فنية تمتدح أنور السادات أو حسني مبارك في أوقات الأزمات السياسية معهما .

ومن الغريب أن الإعلام العراقي كله يمكن أن يهمل أنباء مهمة تتناقلها وكالات الأنباء وإذاعات العالم فلا يبثها ويتركها دون أدنى معالجة أو إيضاح بينما المواطن العادي أصبح ملما بأبعادها فبينما كان الإعلام في العالم كله يتناول نبأ إعدام الإمام محمد باقر الصدر بأمر من صدام حسين التزم الإعلام العراقي الصمت المطبق وكذلك عندما اعتقل منيف الرزاز وغيره ولم يتحدث الإعلام العراقي أبدا عن هزائم جيشه على جبهة الحرب مع إيران إنما ظل يردد أهازيج النصر وروايات القادسية الملفقة بل إن عملية طبس الشهيرة التي أخفقت فيها الطائرات الأمريكية وقواتها المحمولة في تخليص الرهائن الأمريكيين في طهران ظلت نبأ ممنوعا من النشر رغم أن كل مواطن عراقي ألم بتفاصيلها عبر إذاعات العالم المختلفة .

* * *

الندوات والملتقيات والمؤتمرات

كانت المؤتمرات والندوات والملتقيات إحدى أهم الوسائل الإعلامية البعثية حيث تدعى حشود من السياسيين والكتاب إلى مؤتمر سياسي لمناسبة أو غير مناسبة ويلقي هؤلاء كلماتهم وأبحاثهم المؤيدة حتما للقيادة والحزب في العراق المتغزلة بالضرورة في قائده المشيدة دائما ببطولاته ثم تبدأ أجهزة الإعلام المسموعة والمرئية في نقل وقائع المؤتمرات لأيام وأسابيع طويلة وتعد الكتب الفاخرة عنها وتقدم على أنها رؤى محايدة لسياسيين وكتاب محايدين برغم أن الذين تمت دعوتهم هم هؤلاء المرتبطون بشكل أو بآخر بأيديولوجية البعث وأهدافه وإلا لما وجهت إليهم الدعوات لحضور المؤتمر .

وبنفس الأسلوب تتنوع الملتقيات الشعرية فهذا ملتقى للشعر العامي وهذا ملتقى المربد وكلها لقاءات يتوافد لها الكتاب والشعراء والفنانون على بغداد لأهداف رسمت بدقة وبأسلوب مميز من الاستقبالات الحافلة والمهرجانات الصاخبة والولائم والحفلات والهدايا ثم تبدأ عمليات النفاق والابتذال وشراء الذمم والضمائر .

وبينما هؤلاء ممن ارتضوا لأنفسهم دورا في التطبيل للبعث والنفاق لقائده يقابلون بالترحيب وتقام لأجلهم المهرجانات وترصد لأجلهم العطايا والهدايا فإن العديد من الكتاب والمثقفين والفنانين العراقيين يرزحون تحت ظروف غاية في القسوة في سجون وأقبية الأمن السرية معرضين فضلا عن التعذيب إلى الإهانات والإذلال وحتى التصفية الجسدية وهناك من يعيش منهم في المنفى مطاردا ومعرضا للاغتيال في أية لحظة أو الموت في ظروف غير طبيعية وهناك عشرات المثقفين العراقيين الذين أجبروا على التخلي عن قناعاتهم بوسائل يندى لها جبين الإنسانية وبينها الاحتفاظ بأسرهم وأطفالهم كرهائن ومنعهم من مغادرة العراق وبينما يمنح صاحب كل قصيدة في مدح القائد سيارة أو ألف دينار أو كليهما يمنح بعض الشعراء في صمت رصاصة من مسدس كاتم للصوت .

وبغير المؤتمرات السياسية والملتقيات الشعرية والأدبية فإن بين مهام مكاتب الإعلام ووزارته والملحقيات الثقافية العراقية في بلدان العالم أن تعمل على تجنيد المثقفين

العرب من كل أقطارهم لخدمة الحزب وأن تدعو أعدادا منهم في أي وقت إلى بغداد ليتم تأمين علاقاتهم بالحزب وتدعيم اتصالاتهم بالسلطة وربطهم بعجلتها .

وتعتبر المنظمات الحزبية المنتشرة خارج العراق خاصة في أوروبا وأمريكا إحدى وسائل الإعلام العراقي فإضافة إلى مهامها السياسية والتنظيمية فإن ضمن مسئولياتها توزيع الكتيبات والنشرات الإعلامية عن الحزب وقائده والدعاية لهما بأشكال وأساليب مختلفة تبدأ بالملصقات الحائطية وتنتهي بالمظاهرات المنظمة التي يردد المتظاهرون فيها شعارات الحزب ويهتفون من خلالها بحياة القائد ويؤيدون سياساته .

* * *

قال لي فاضل الشاهر ذات يوم « نعرف أن الإعلام العراقي هو إعلام قاصر وعصبي ومتوتر وخطابي بالدرجة الأولى وأنه لا يجيد مخاطبة العقول وأنه يخاطب المشاعر ويحاول أن يبقي على الشارع العراقي في حالة حماس وتأهب طول الوقت ولكن ألا ترى أن ذلك هو أنسب للشعب العراقي وظروف الحالة التي نعيشها وألا ترى إنه انعكاس لجو عام تحاول القيادة أن تصنعه داخل هذا البلد » ولم أفهم ما قصده فاضل الشاهر بهذا كله فابتسم قائلا « ألا ترى معى أن الإعلامي لا يستطيع أن يقنع إلا إذا كان هو بالأساس مقتنعا » كان الحوار قد بدأ باتهام منى للإعلام العراقي بأنه بعيد عن العقل والمنطق وكان قد انتهى بجملة قالها فاضل الشاهر ومضى « الإعلام الداخلي في العراق يناسب الظروف ، ظروف القيادة وظروف الشعب . أما الإعلام العراقي في الخارج فإن لنا معه حكاية أخرى ، ولنا من أجله صحيفة في كل بلد وقلم في كل صحيفة ذلك على الأقل وعلى امتداد العالم كله » .

وفي محاضرة له بمدرسة الإعداد الحزبي عام 1980 قال طارق عزيز إننا مهتمون بالإعلام والتثقيف اهتمامنا بالجيش والتنظيمات الحزبية وقال إننا بهذه الأدوات الثلاثة سنحقق أهدافنا في أمة عربية واحدة يقودها حزب البعث ، وينطلق بها إلى آفاق

*   *   *

وهكذا نرى أن إعلاما قويا وقادرا على إعادة صياغة العقل العربي وفق معطيات حزب البعث وأطروحاته هو أحد أهم الأهداف العراقية كما عبر صدام حسين نفسه في حديث إلى الإعلاميين البعثيين في أعقاب انفراده بالسلطة عام 1979 وأن إبراز صدام حسين كقائد لايجارى وفارس لا يبارى وزعيم فذ هو أهم أهداف هذا الإعلام كما حددها طارق عزيز المنظر الأول في حزب البعث ، ووسائل ذلك كما صاغتها المؤسسات الإعلامية هي الإلحاح بالأكاذيب على المستمع العربي وتجنيد أكبر من عدد من الإعلاميين العرب وفي العالم كله والسيطرة على المزيد من الصحف والمجلات والأبواق الدعائية الأخرى وهكذا أيضا تشابكت أقلام عديدة والتقت أبواق متعددة لتصنع أكذوبة صدام حسين المناضل والإنسان والمفكر والوحدوي الأول والبطل الذي لا يهزم وفي مرحلة لاحقة وبعد أن قررت القيادة أن تتاجر بالدين وتستخدمه ضمن وسائلها الإعلامية رأينا كيف أصبح صدام حسين وليا من أولياء الله الصالحين وسليل الأسرة النبوية الشريفة وحامي حمى الإسلام ومقدساته وجنديا في حزب الله كما عبر بنفسه ذات يوم !!

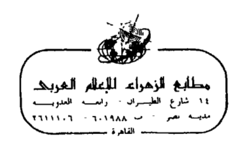
عشر سنوات والصحافة المبتذلة والأبواق المنافقة تلح على القارئ والمستمع العربي بأكاذيبها وبشتى الوسائل بعد أن استطاع النفط بأمواله الهائلة أن يصنع إعلاما وأن يسخر أقلاما وأن يجند أتباعا في كل مكان انفضوا كلهم عنه بعد غزو الكويت وخواء الخزائن وبعد أن بدت نهايتهم وشيكة .

ولكن هكذا صنع الإعلام البعثي كارثة صدام حسين أو صدام حسين الكارثة التي حلت حينا على إيران وحينا آخر على الكويت وظلت في كل الأحوال جاثمة على أرض العراق ولا يزال الخطر محتما وسيظل مسلسل الكوارث الصدامي يتتابع .

الفهرس


أحمد أنف
التاريخ السري لصدام حسين
الحرب بين الإسلام والشيطان
الزهراء للإعلام العربي

رقم الايداع : ١٥٣٣ / ١٩٩١
الترقيم الدولي : ٢ ــ ٠٢٦ ــ ٢٥٧ ــ ٤٧٧



مذكرات بعثي سابق

يعتبر هذا الكتاب من الكتب الهامة لدراسة المجتمع البعثي العراقي ، وفهم دور حزب البعث ومناهجه في القضاء على الإنسان العراقي وتخريبه وإفساد نفسه وضميره .

وتفهم من قراءة هذه السطور أن حزب البعث قد نجح في تحطيم الإنسان في العراق والقضاء على كل معنوياته وأخلاقه ، وأنه قد استطاع أن يحول كل المواطنين إلى مجموعة من كتبة التقارير . وكلهم يتجسسون على بعضهم البعض ، حيث تشي الزوجة بزوجها ، والولد بأبيه في عالم هو أقرب إلى مزرعة الحيوانات منه إلى مجتمع آدمي له نشاط .

هذا الكتاب يبين لنا أهمية الإسلام لبلادنا العربية المنكوبة بالقتلة والسفاحين الذين يتسللون إلى الحكم في غفلة منا و من الزمن . وهو يدعونا في إلحاح إلى الوقوف ضد صدام حسين ، فقد نجح في ضرب الإسلام والمسلمين في مقتل ، ولن يكون هناك أمل في النهضة مادام هذا النظام الشيطاني في أرض الرافدين

أحمد الأ

الزهراء للإعلام العربي